

فدوى طوقان

الرحلة الأصعب

سيرة ذاتية



فدوى طوقان

الرحلة الأصعب




الرحلة
الأصعب

* فدوى طوقان ؛ الرحلة الأصعب

* الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٣

* الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع
ص .ب ٩٢٦٤٦٣ هاتف ٦٢٤٣٢١
فاكس ٦١٠٠٦٥ عمان – الأردن

* التوزيع : المركز العربي لتوزيع المطبوعات ش.م.م
ص . ب ١٣/٥٦٨٧ تلكس ACEP٢٠٩٨٣
بيروت – لبنان

* رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٩٣/١/٢٤

٨١٨٫٠٣
فدر فدوى طوقان
الرحلة الأصعب / فدوى طوقان .– عمان :دار الشروق للنشرو ١٩٩٣.
(٢٠٤) ص
ر.أ. ١٩٩٣/١/٢٤ .
١ – المذكرات الأدبية. ٢ – فدوى طوقان – سيرة ذاتية . أ – العنوان



الرحلة الأصعب


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

(١)

لن تبرح مخيلتي صورة ذلك اليوم الحزيراني المشؤوم ، يوم الاثنين الخامس من حزيران العام ١٩٦٧ . كنت في عصر اليوم السابق قد مضيت الى القدس استجابة للنداء التلفوني من « الصديق الغريب » هناك ، حيث اقترح علي المغادرة الى عمان أو بيروت فالحرب وشيكة الوقوع وهذا شيء مؤكد . ولكني أعلنت رفضي القاطع لفكرة الهرب، فنصحني بالتزود ببعض الخبز والأطعمة المعلبة والبن والسجائر الخ ....

صَمْتُ منتصف الليل في الفندق موحش وثقيل . سيغادر الصديق بعد أيام قليلة عائدا الى بلاده ما وراء المحيطات . غفواتي قصيرة متقطعة . فكرة الحرب تملؤني بالرعب . مررت بتجربة هذا الرعب في حرب ١٩٤٨ . استحضر الان ذكرى ذلك العام ، العام ١٩٤٨ ، والحرب على أشدها بين العرب واليهود . ها هو بيت العائلة القديم يعج بمن لجأوا

اليه من أفراد العائلة المقيمين هنا وهناك ؛ ابن عمي خليل يترك بيته غرب المدينة ليلجأ الى بيت العائلة مع زوجته وأمه وأطفاله. اخي احمد يترك القدس ويفدُ علينا مع عائلته ، يجيء اخي يوسف وزوجته وأطفاله من غزة .

في غبش الصباح من كل يوم كانت تقوم طائرتان اسرائيليتان بضرب المدينة ، أصبح النوم في الطوابق العليا غير مأمون العواقب ، وهكذا نُقلت أسرة النوم الى الغرف السفلى ذات السقوف المقعرة والتي يستحيل وقوعها تحت طائلة الغارات الجوية ، فهي أشبه من جهة حصانتها بالملاجيء ، ناهيك عن كون أسلحة الطيران الاسرائيلي لم تكن قد تطورت بعد تطورها الذي نعرفه اليوم .

كان بعض شباب الجيرة الشجعان في حارة الياسمينة يستهويهم الصعود الى الاسطحة واطلاق النار باتجاه الطائرتين المغيرتين ، حين يصبح تحليقهما على علو قريب . ذات يوم أصابت احدى الرصاصات الهدف ، فعادت الطائرة أدراجها للتو . في صبيحة اليوم التالي فوجئنا بطائرة تحوم وتحوم في جو المنطقة ، منطقة حارة الياسمينة ، لتلقي بقنابلها على احدى الدور الكبيرة العتيقة الملاصقة لدارنا ، فتهز المنطقة هزا عنيفا ، وتدمر جزءا من تلك الدار . منذ ذلك اليوم أصبحتُ مسكونة بكابوس الرعب من الغارات الجوية المباغتة.لست أخاف الموت ، انه النوم الأبدي . ما أخشاه وما يملؤني بالرعب هو الاصابة بعاهة تقعدني عاجزة مكسورة .

يا لكآبة ذلك المساء ، مساء الخامس من حزيران في القدس ! صخرة من الغم تربض على قلبي بكل ثقلها . الحرب ؟ يا للهول !

الاطفال هم نقطة الضعف المركزية عندي . حبي لهم يبلغ حد الوجع . قفز تفكيري نحو أطفال شقيقتي الاثنتين ، أديبه وحنان ، ثم تخطاهم الى أطفال الاخرين . أولئك هم أحباب الله ، فهل يتخلى عن حمايتهم ؟ كيف السبيل الى انقاذ كرمة وعمر وهانية وعمار واخواته من مواجهة الشبح القادم ؟ كيف السبيل الى حماية هؤلاء الأطفال وكل الاطفال الاخرين من معاناة الخوف والجوع والعطش وأهوال الحرب ومآسيها ؟ كم يعوزني الايمان .. وكم أنا بحاجة اليه في هذا الوقت العصيب ! يا ألله ، اني أفزع اليك لاسألك الرحمة بأحبابك .

تناولت قهوتي في التاسعة من صباح اليوم التالي . أطفأت سيجارتي وخرجت إلى الشارع ريثما تحين ساعة اللقاء بالصديق الغريب، ذلك اللقاء الذي لم يتم ، والذي تناولته في القصيدة الثالثة ضمن خمس قصائد كانت أول ما كتبت من شعر بعد الانكسار الحزيراني ، وكان عنوانها « الى الصديق الغريب » ، وأتمنى الان لو أنني كنت قد استبدلت بهذا العنوان عنوانا أنسب للقصيدة وهو « لو » :

صديقي الغريب

لو أن طريقي اليك كأمسِ

لو أن الافاعي الهوا للك ليست

تعربد في كل دربِ

وتحفر قبرا لاهلي وشعبي

وتزرع موتا ونار

لو أن الهزيمة لا تمطر الان أرض بلادي

حجارة خزي وعار

ولو أن قلبي الذي تعرفُ

كما كان بالامس لاترعفُ

دماه على خنجر الانكسار

ولو أنني يا صديقي كأمسِ

أدل بقومي وداري وعزي

لكنت الى جنبك الان ، عند شواطيء حبك أرسي

سفينة عمري

لكنا كفرخي حمام !

من شارع صلاح الدين انعطفت بسيري يمينا باتجاه باب العمود .
هنا لفتت انتباهي حالة ليست طبيعية ، الناس العابرون يتوقفون لدى أجهزة الراديو في المقاهي وفي الدكاكين منصتين واجمين ، فيما صوت

المذيع أحمد سعيد يهدر من اذاعة صوت العرب : « صواريخ الدفاع المصري تسقط كذا وكذا من طائرات الجيش الاسرائيلي .. » كانت كلمات المذيع تنطلق كالقذائف ، متلاحقة ، محمومة ، والوجوه من حولي تكسوها تعابير غير واضحة . واصلت السير بعد وقفة غير قصيرة وقد أخذتني الدهشة والذهول والخوف . طرق سمعي صوت يناديني باسمي ، انه « محمود أمريش » سائق تكسي يعمل على خط نابلس القدس ينصحني بمغادرة القدس فورا ، فجميع السيارات التي تتجمع عادة في كراج نابلس بباب العمود قد باشرت بمغادرة القدس والعودة الى نابلس . أسرعت في التوجه نحو سيارة محمود امريش ، أخذت مقعدي الى جانب أحد الركاب ، انطلقت بنا السيارة تسابق قافلة السيارات العائدة الى نابلس ، فيما صوت أحمد سعيد الهادر من خلال جهاز الراديو يبشرنا بخسائر الطيران الاسرائيلي المتتالية ، وكان محمود كلما تجاوز سيارة يمد ذراعه خارجا ملوحا لسائقها ، مهللا مبتهجا ملتهبا بالحماس ، فلقد كان الوجدان الشعبي الفلسطيني مشحونا آنذاك بالامل والثقة والنصر المؤكد .

كان الناس في شوارع نابلس في حالة فرح وابتهاج أشبه بالهستيريا . قمت بشراء بعض المونه ومضيت اتلفت باحثة عن سيارة تكسي توصلني الى بيتي . وعلى أمل أن أصادف على الطريق احدى السيارات ، واصلت المسير مثقلة بالهم والتوتر وبما أحمل من أكياس

المونة . كانت شمس ظهيرة السادس من حزيران شديدة الحرارة . قطعت مسافة نصف ساعة مشيا على القدمين في عز تلك الظهيرة الملتهبة ، قطعتها لاهثة مجهدة ، وحين وصلت بيتي كنت غارقة في العرق . اغتسلت بسرعة وانطرحت على فراشي لتدهمني بعد ذلك حمى ضربة شمس شديدة الوطأة ، مصحوبة بنزلة صدرية حادة .

ظلت حقيقة نتائج الحرب غائبة عنا غيابا كليا . خلال يومي الاثنين والثلاثاء بدأنا نتراوح بين شعور بالابتهاج راجت تبثه فينا البيانات المبشرة بالنصر ، وادعاءات المشير عبد الحكيم عامر عبر الاذاعات العربية القائلة ان الطيران المصري قد دمر أكثر من خمس وسبعين بالمئة من الطيران الحربي الاسرائيلي ، كما دمرت القواعد الاسرائيلية ، وبين الحيرة والبلبلة من انتشار أقوال متضاربة عن تقدم القوات الاسرائيلية داخل الضفة الغربية (اذ كنا فريسة تتخبط بين مخالب الشك والقلق وعدم اليقين) ظلت الحقيقة غائبة طوال الايام الخمسة ، بدءا من ضرب المطارات الحربية في مصر ، ومرورا بامتداد القتال البري الى سورية ، ومعركة الشيخ جراح العنيفة في القدس ، والقصف الشديد الذي تعرضت له المنطقة هناك من الطيران الاسرائيلي والمدفعية ، الى قصف الدبابات الاردنية في أريحا ووصول المدرعات الاسرائيلية اليها ، ونسف الجسرين واستيلاء قوات العدو علىّ رام الله ، واحتلال بلدة قلقيلية القريبة من نابلس . مرورا بكل هذا ظلت الحقيقة غائبة حتى اليوم

السادس ، يوم صمتت المدافع في كل مكان ، عملا بقرارات مجلس الامن الدولي التي أصرت على وقف اطلاق النار بعد أن اكتمل السقوط التام ، سقوط الضفة الغربية والقطاع والجولان وسيناء .

في ضحى الاربعاء ، الثامن من حزيران طرقت بابي شقيقتي أديبة الملتصق بيتي الصغير ببيتها ، دخلت والدموع تتناثر من عينيها لتبلغني بصوت مخنوق نبأ احتلال الجيش الاسرائيلي للمدينة ، عَرَفْتُ ذلك من رفرفة قطع قماش بيضاء على أسطحة البيوت هنا وهناك في السفوح التي تطلُ عليها منطقتنا المسماة بمنطقة « المخفية » .

نهضت مسرعة بركبتين مرتجفتين ، وبقلب متلاحق الضربات اندفعت نحو البستان المشرف على السفوح والشوارع البعيدة . كانت المسافة التي تفصل منطقة « المخفية » عن المدينة تحول دون معرفتنا ما يجري فيها الا اذا وفد علينا وافد منها . اقتعدت احدى الدرجات الاربع قرب الباب مرهفة السمع ، لا صوت ، لا نأمة .. صمت موحش كصمت مقبرة مهجورة .. لقد أمسكت المدينة أنفاسها .. أواه يا مدينتي الصامتة الحزينة !!

كان الجيش الاسرائيلي قد فاجأ المدينة باقتحامها من حدودها الشرقية ، فبعد احتلاله لطوباس ، التف زاحفا نحو نابلس عبر شعاب جبل عيبال ليلقى هناك بعض المقاومة من قبل الشباب المتطوعين لم تلبث أن أخمدها العدو ، كما احتدمت في الشارع الرئيس شرقي نابلس

مقاومة أخرى أخمدتها القوات المحتلة بالقاء القنابل الحارقة على النوافذ والشرفات ، وشتى النواحي الاخرى .

خلال ساعتين كانت بعض سيارات بلدية نابلس تلف وتدور في مختلف أنحاء المدينة ، معلنة عبر مكبرات الصوت أوامر منع التجول الصادر من القائد الاسرائيلي .



(٢)

ها هي دماؤنا تقطر من حدّي سكين الطعنة المباغتة . الواقع الجديد يصيبنا بالشلل والذهول . أرواحنا تضطرب تحت الممارسات القمعية . العدو يصدر أمره الى جميع أصحاب السيارات ، الخاصة منها والعامة ، بنقل سياراتهم وتسليمها الى الجيش في المنطقة المحيطة بمبنى المحافظة ، الذي أصبح الان مقراً لقيادة الجيش الاسرائيلي ، مما شلّ امكانية التحرك والتنقل من مكان لاخر ، وحين دهمتني ضربة الشمس لم يكن هناك من وسيلة للاتصال بأي طبيب ، كل البيوت مستهدفة من جيش العدو بحثا عن السلاح وعن حملة السلاح بين السكان ، والنساء تحتضن الاطفال المرتعشين المذعورين من منظر الخوذات الحديدية ، وقد شرّع الجند أسلحتهم ذات الحراب استعدادا لاطلاق نيرانها في أية لحظة تفوح منها رائحة خطر مداهم . الى جانب هذا كان يحدث هناك ، في أعماق الاطفال المذعورين ، شيء آخر نقيض للذعر . كانت تجري على صفحة الطفولة البيضاء عملية تسجيل خفية ، تنطبع معها في الاعماق

وتنزرع وتُختزن كل صور أيام الاحتلال الاولى ، ليتفجر منها فيما بعد السلوك الاسطوري « لاطفال الحجارة » تجاه جنود الاحتلال بكل ما في ذلك السلوك من قوة التحدي والرفض ! ...

منذ اليوم الاول التزمت بيتي ، ولم أبرحه قبل مرور شهرين على الاحتلال . كنت أحس بضربات قلبي تتسارع كلما فكرت بالنزول الى المركز التجاري في قلب المدينة ، فلقد كان مجرد تصوري للواقع المتجسد بوجود الاسرائيليين ودباباتهم وانصاف مجنزراتهم يهز كياني ويعطل قدرتي على الحركة .

ولكن حتى متى ؟

كان لابد مما ليس منه بد . كان لابد من مواجهة الطاعون !

من خلال الانهيار التام للسقف الفلسطيني ، قام جسر الزيارات وامتد بين شقي البيت المشطور ، فضمن هذا الواقع الجديد المشؤوم ، أخذ أفراد العائلة الفلسطينية يسعون ويعملون على تجديد وحدة الجسم الواحد ولقاء الاهل والاحباب في الضفة والقطاع وفي الشطر المحتل عام ١٩٤٨ . وكانت ابتسامات اللقاء آنئذ تندى بدموع الانكسار ، وكانت القلوب تنزف تحت الراية المطعونة بخنجر الايام الستة .

من هنا شرع يفد عليّ بعض الزائرين من الشباب العرب المقيمين في حيفا ويافا والناصرة وعكا وسواها من المدن والقرى ممن لهم اهتمام

بالشعر والادب .

كان وجه القاصّ الفلسطيني « توفيق فياض » من أوائل الوجوه التي هلّت عليّ في ذلك الحينِ وانعقدت بيني وبينهم صلة مودة وصداقة. كان حينئذ يقاسم محمود درويش وسميح القاسم السكنى في البيت نفسه ، وكان ثلاثتهم يتقاسمون الجوع والحياة الصعبة . كان حديثه عنهما يشوقني ، فقد كانا مع توفيق زياد وسالم جبران قد أصبحوا بالنسبة الينا رموزا وطنية تجسد المقاومة والرفض والصمود ، والتمسك بالهوية القومية وسط عالم وواقع رهيب يهددهم ويهدد الاقلية العربية في اسرائيل بالاندثار والفناء .

كان توفيق فياض يوافيني خلال زياراته لي بجريدة « الاتحاد » وبمجلتي « الجديدة » و « الغد » ، وكانت هذه الصحف التقدمية السياسية الادبية محظوراً توزيعها في الضفة والقطاع ، ولا يزال هذا الحظر قائما حتى كتابة هذه السطور . من خلال تلك الصحف تعرفت على اميل حبيبي ، والدكتور اميل توما ، والاستاذ صليبا خميس ، والاستاذ علي عاشور ، وسواهم من رسل القوة وأعداء الضعف والانهيار ، أولئك المعلمون الكبار ، حاملو الشرارة من النار المقدسة ، والمبشرون بانتصار الحياة .

في يوم من أيام منتصف أيلول العام ١٩٦٧ أرسلتُ الى جريدة « الاتحاد » بواسطة توفيق فياض قصائدي الخمس الاولى :

«مدينتي الحزينة» ، « الطاعون » ، « الى صديق غريب » ، « الطوفان والشجرة » ، «حيٌ أبدا » . وقد نشرت هذه القصائد في جريدة «الاتحاد» بتايخ ٢٢/أيلول ١٩٦٧ .

وفي الاخير لملمت نفسي وانتزعتها من الانهيار والدمار والغربة والاغتراب في الذات والوطن ، ويممت وجهي شطر حيفا لالتقي بهم وفي يدي هديتي اليهم « لن أبكي » .

قبل زيارتي الاولى لحيفا بفترة وجيزة كان بعض الاصدقاء قد اصطحبوني معهم في رحلة استطلاعية الى مدينة يافا . هناك ، في أحد الشوارع الرئيسية المزدحمة ، استوقفتنا شرطة السير الاسرائيلية ، وبوجوه متجهمة ، وغطرسة مقيتة ، أمرنا بمغادرة السيارة والوقوف جانبا، ففعلنا ، ثم شرع اثنان من الشرطة بالقيام بتقليب المقاعد وتفتيش الزوايا من كل جانب . بالنظرات العدوانية نفسها أمرنا بالعودة الى داخل السيارة لنواصل الرحلة وفي الاعماق المكسورة يدوّي صدى قول المتنبي : « ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان » . وما كنا نقف هناك « بشعب بوّان » ، ولا على أرض غريبة ، بل كنا نحس بقوة انتمائنا وبنبض جذورنا الفسطينية في الارض العربية المغتصبة عنوة واقتدارا ، والتي هي أسيرة الان في أيدي غرباء لا جذور لهم فيها ولا أصول ، يتصدون لنا آمرين ناهين منزعجين من وجودنا هناك .

عرجنا بعد ذلك على الجزء القديم من مدينة يافا لتطالعنا أنقاض البيوت التي هدمتها الحرب سنة ١٩٤٨ ، ولنشاهد بعض أجزاء من أثاث تلك البيوت تبرز من خلال ركام الاطلال . شظايا وبقايا من أرجل لكرسي محطم ، أو باب مخلّع ، أو شباك مكسر ، ناهيك عن الجو المأساوي المحيط . داخلني حزن صامت ، نفس الحزن الذي داخلني يوم قمت بجولة لاول مرة بعد الاحتلال في المنطقة الحرام في القدس . أسندت يومها رأسي الى جدار عتيق ودرت ببصري بين شبابيك الدور المهجورة الموحشة والمفلّعة الجدران . لفتت انتباهي الستائر المعلقة ، حائلة اللون والممزقة ، وقد عبثت بها عناصر الطبيعة . كانت تلك الستائر تخفق مع هبة الريح فتبعث في أعماقي حسا تراجيديا ثقيل الوطأة . تراءت لخيالي صورة وهمية لصاحبة البيت وهي تقوم قبل عشرين عاما بتعليق ستائرها الجديدة الجميلة فيما أطفالها من حولها يضجون ويعبثون ويمارسون شيطنتهم وصخبهم الطفوليّ ، واستحضرت ذاكرتي آنذاك مقطعاً محتشدا بالشجن لاحدى قصائد أبي نواس :

يا دار ما فعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تُضامُ

عرم الزمان على الذين عهدتهم بك قاطنين وللزمان عـُرامُ

وبكيت ، أي والله ، بكيت .

كان القسم الاول من قصيدتي « لن أبكي » هو الحصاد والمردود لوقفتي المتألمة في الأرض الحرام بين شطري القدس ، الشرقي والغربي ، ولوقفتي في يافا بركام البيوت العربية وأنقاضها قبل زيارتي لحيفا ببضعة أيام .

وكان لقائي الاول بمحمود درويش ، شاعر الشعراء ؛ قال محمود : « ها نحن نلتقي يا فدوى ، وقد أصبحت أخشى من مجيء يوم تأتي الينا فيه أم كلثوم أو نزار قباني ! » .

كان وراء كلماته مرارة ملموسة ...

حين انتهيت من انشاد قصيدتي « لن أبكي » قال محمود : نحن مدينون لك منذ اليوم بقصيدة . وسألتني الصديقة سلمى ماضي ، التي كان هذا اللقاء في بيتها بشارع عباس في حيفا ، سألتني انشاد قصيدة أخرى ، فتلوت قصيدتي « الفدائي والارض » التي نظمتها على أثر استشهاد البطل الفلسطيني مازن أبو غزالة في معركة « طوباس » ، تلك المعركة التي قامت بين رجال المقاومة والجيش الاسرائيلي بعد مرور شهور قليلة على الاحتلال الصهيوني للوطن . ومن الجدير بالذكر أن شقيقا له استشهد هو الاخر فيما بعد ، في معركة أخرى مع العدو المحتل.

منذ ذلك اليوم ، يوم زيارتي الاولى لحيفا ، تكررت زياراتي ولقاءاتي في حيفا والناصرة بشعراء الرفض والتمسك بالهوية القومية ؛ وفي كل زيارة كنت أجد سميح القاسم تارة ، ومحمود درويش تارة أخرى ، محكوما بالاقامة الجبرية في البيت وبتسجيل اسمه يوميا لدى مركز البوليس .

بصحبة الصديقة سلمى ماضي ، وزوجها ، آنذاك ، عصام عباسي، كنت أمضي بعض الامسيات في غرفة سميح الصغيرة ، أو غرفة محمود الذي كان قد استقل ببيت خاص به ، فألتقي بمحررين وكتاب في جريدة الاتحاد ومجلتي « الجديد » و « الغد » التقدميتين ؛ ولقد تم التصاقي بكل هؤلاء ، فكانوا بالنسبة اليّ قطرات الضوء في ليل الاحتلال الحالك ؛ فبين هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كانت السياسة والانتماء الحزبي عملهم من أجل الحياة ، ومن أجل الوطن ، ومن أجل الانسان ، وجدت نفسي ، كما وجد التحول النوعي طريقه الى نفسي وتفكيري وكأنما لمستني كفّ المعجزة ! .. كنت أعود من لدنهم بعد كل لقاء وفي نفسي ترتعش المشاعر المعافاة كارتعاش الازهار.

في واحدة من تلك الاماسي ، في بيت محمود درويش ، وبعد جدال وأخذ وردّ بين سميح ومحمود حول شاعرية أحمد شوقي – وكان محمود فيما أذكر منحازا لشوقي – قرأ محمود علينا مسودّة رباعياته المهداة اليّ « يوميات جرح فلسطيني » ، ولعل هذا هو المكان

المناسب لأذكر أن محمودا حين قال في الرباعية الثانية من هذه القصيدة:

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن يا أختاه من عشرين عام
نحن لا نكتب أشعارا ولكنا نقاتل

انما كان يشير الى قولي في نهاية قصيدتي التي نشرت قبل ذلك في جريدة الاتحاد ، وفيها أخاطب الصديق الذي حالت حرب حزيران دون لقائه في القدس في أول أيام الحرب :

... لو أنني يا صديقي كأمس
أدلُّ بقومي وداري وعزي
لكنت الى جنبك الان ، عند شواطيء حبك أرسي
سفينة عمري
لكنّا كفرخي حمام !

ولعله من الجدير بالذكر أيضا أنّ المقاطع ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ من « يوميات جرح فلسطيني » تشير الى البطل الشهيد مازن أبو غزالة، والذي أنشدت قصيدتي في رثائه « الفدائي والارض » خلال لقائي الاول بمحمود .

لقد كانت هذه بداية التفاعل الحيوي المثمر الذي ظل محافظا على استمراريته من جرّاء التحام كتّاب الضفة والقطاع بالكتّاب والشعراء الفلسطينيين المقيمين في الجزء المحتل من فلسطين منذ العام ١٩٤٨ ، بالرغم من حرص السلطات العسكرية على اقامة حواجز المنع وعرقلة نشوء أي تفاعل أدبيّ أو تلاحم فكريّ بين أبناء الشعب الواحد الذي شطرته المأساة سنة ١٩٤٨ . فكم من مرة ، حين كنت أُدعى الى المشاركة في مناسبة أدبية وطنية في الناصرة أو القدس مثلا ، كانت ولا تزال – توجّه اليّ الاوامر العسكرية بعدم مغادرة نابلس في ذلك اليوم بالذات .



(٣)

كانت الساحة الادبية في الضفة والقطاع قد شهدت في السنتين الاولى والثانية من الاحتلال فراغا أدبيا وثقافيا رهيبا بفعل غياب المؤسسات الوطنية والكوادر الثقافية ، ناهيك عن غياب الصحافة المحلية والمجلات الصادرة عن البلاد العربية ، لكن هذا الفراغ لم يلبث – برغم كل الضغوط التي تمارسها السلطات العسكرية – أن بدأ يمتليء شيئا فشيئا مع نشوء التفاعل والتواصل الحيوي بين الجيل الجديد من الادباء اليافعين ، وبين الرموز الادبية والوطنية والقيادات الفكرية العربية ، التي بقيت مزروعة في أرضها بعد السقوط في العام ١٩٤٨ .

من خلال هذا التواصل ، ومن خلال هذا التفاعل ، تكوّنت ، وستظل تتكون وتتنامى قطرات الضوء تحت ليل الاحتلال ، وسوف يستمر العمل معا لاعادة تركيب ما هو كائن ، انطلاقا من الحلم بما سيكون ، بالرغم من اصطدام الاقلام بالرقابة ، ومحاولة خنق الأنفاس ،

والسجون والمعتقلات وكل ما من شأنه اخماد الوعي الجديد المنبثق من رماد الهزيمة .

ذات مساء أتلقى مكالمة هاتفية من محمود درويش - وكان آنذاك رئيس تحرير مجلة « الجديد » - يسألني فيها المساهمة في الكتابة من أجل باب جديد استحدثه في المجلة عنوانه « صفحات من مفكرة » . قال محمود عبر الهاتف انه من هذا الباب يتسلل الى يوميات الكتّاب والشعراء الخاصة ، ويسرق منها صفحات يهديها الى القراء ، ولكن عملية التسلل تجري بأسلوب جديد ، اذ يعلن محمود لصاحب اليوميات المرشحة للسرقة أن يومياته معرضة للفضيحة ، وما عليه ، لكي ينجو من الفضيحة الاّ أن يتبرع بصفحات مختارة من يومياته .

استجبت لرغبة محمود ، ونُشرت صفحات من مفكرتي في أحد أعداد مجلة الجديد ، ومن المناسب أن أذكر أن تلك الصفحات التي نشرت آنذاك في باب « صفحات من مفكرة » كانت النواة التي انبثق منها كتابي « رحلة صعبة - رحلة جبلية » ، الذي نشرت منه فيما بعد بعض حلقات في مجلة الجديد ما بين العامين ١٩٧٧ - ١٩٧٨ ، حين كان يرأس تحريرها سميح القاسم .

لقد كانت الاقليات العربية التي بقيت متجذرة في أرضها كشجر الزيتون الفلسطيني منقطعة انقطاعا تاما عن مواكبة الحركات الأدبية والمعطيات الفكرية في البلاد العربية ، فلم تكن المطبوعات العربية على

مختلف أنواعها واتجاهاتها لتجد لها منفذا تنفذ منه الى أولئك الظامئين المتعطشين اليها ؛ فاذا أتيح لأحدهم الوقوع على كتاب عربي غمرهم الفرح ، وأخذوا يتناوبون قراءته ونسخه واحدا بعد الاخر ، وكأنما وقعوا على كنز . وحين شرع بعض الزائرين من شباب الجيل العربي هناك يفدون عليّ بين آونة وأخرى ، لفت انتباهي اهتمامهم الشديد بالكتب التي تزنّر رفوفها غرفة الجلوس ؛ كان الواحد منهم ينهض مستأذنا ليقف أمام تلك الرفوف متطلعا ، محدقا بلهفة واضحة . وأذكر الان يوما زارني فيه الشاب « م . ح » من قرية مصمص العربية . مدّ الشاب يده الى أحد رفوف الكتب وأخرج كتاب « الحرية والطوفان » لجبرا ابراهيم جبرا ، مبديا رغبته في استعارة الكتاب.كنا قد بدأنا منذ الاحتلال الجديد نكابد الحصار الثقافي الذي كابده أهلنا المحتلة ارضهم منذ ١٩٤٨ ، حيث أخذت السلطات العسكرية تمارس مصادرة الكتب من المكتبات الخاصة والعامة ، سواء أكانت هذه الكتب أدبية ، أم دينية ، أم جغرافية ، أم تاريخية الخ .. هذا عدا عن قوائم بأسماء الكتب الممنوعة ، هذه القوائم التي لاتزال تطلع بها علينا الرقابة العسكرية قائمة تلو الاخرى . وهكذا ، ومن منطلق ادراكي ويقيني بأنني لن أجد بديلا أو عوضا عن أي كتاب يخرج من مكتبتي الى الاخرين عبرت للشاب الزائر عن تحفظي من إعارة كتبي بسبب ظروف الاحتلال ، لكنه ألحّ ، ثم توسّل ، وخجلت ، فلم أملك أمام توسله الاّ الرضوخ والسماح له باستعارة الكتاب الذي لم يعد الى المكتبة أبدا ، برغم مرور السنوات الطويلة ،

ولن يعود ، فقد حدثني زميل له كان يرافقه في تلك الزيارة أن « م . ح » حين خرج بالكتاب من البيت كان يضمر الاستيلاء عليه ، حيث قال له: وهل أنا مجنون حتى أرد الكتاب اليها ؟! ..

وحين زارني واحد من جماعة الكويكرز الامريكيين ، وكان يقيم بحكم عمله في قبرص ، سألني عن المضايقات والضغوط التي تمارسها السلطات المحتلة ، فأشرت خلال الحديث الى هذا الحصار الثقافي الذي قطعنا عن مواكبة الفكر والادب العربي الحديث ، والذي حرمنا بالتالي من الاطلاع على المجلات الادبية والفكرية التي تصدر في بيروت ومصر وسوريا الخ ... فتعهد ذلك الانسان الكريم بتزويدي باستمرار بالمجلات التي أوصيه بموافاتي بها ، ولكي لا أثقل عليه فقد اكتفيت بذكر مجلة « الاداب » التي يصدرها في بيروت الدكتور سهيل ادريس ، وبمجلة « مواقف » التي يصدرها الشاعر ادونيس ، وهكذا صرت أتلقّى هاتين المجلتين بانتظام عبر بريد خاص . وكان من دواعي غبطتي أن أوافي محمود درويش وسميح القاسم بالمجلتين بعد مطالعتهما . ولقد كان محمود مفتونا بالشاعر ادونيس وبمجلة «مواقف». وفي احدى رسائله الي قال سميح القاسم : « برغم كوني مدينا لك بعدة مجلات فانني أجد في نفسي المزيد من الجرأة لأطلب المزيد من المجلات ، حتى لو أنت فقدت بعضها فلن تخرب الدنيا أكثر مما هي عليه من خراب :

أنا فاقد وطنا فما خوفي على فقدان زهرة ؟

وأثناء لقائي بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر في أواخر ديسمبر العام ١٩٦٨ ، حدثته عن أولئك المتجذرين في أرضهم منذ عشرين عاما برغم تحديات الحركة الصهيونية التي تواجههم ، لاسيما المحاولات المبذولة لترسيخ العدمية القومية في وجدان الأقلية العربية ، كما حدثته عن معاناة المثقفين الوطنيين هناك من أدباء وشعراء ومفكرين، وما يكابدونه من الاعتقالات وأوامر الاقامة الجبرية التي تحدد تجوالهم في وطنهم ، والتي أصبحت جزءا من حياتهم اليومية بسبب رسالتهم الكفاحية التي يحملونها ويبشرون بمضمونها الوطني والانساني في الوسط العربي ، وكم شعرت بالسعادة حين سمعت من اذاعة القاهرة التحية الحارة التي وجهها الرئيس بعد ذلك اللقاء الى العرب الصامدين المناضلين تحت جناحي الخفاش الكبير منذ عشرين عاما .

يذكرني هذا بالحملة الظالمة التي شنّها بعض المزاودين في بعض الأقطار العربية على الشاعرين محمود درويش وسميح القاسم بسبب اشتراكهما مع الوفد الاسرائلي في مهرجان صوفيا للشباب ، لكونهما يحملان وثيقتي سفر اسرائيليتين ، وكانت هذه أول مرة يطلان فيها على العالم خارج اسرائيل ، ويتصلان بوفود شبيبة العالم ، ويطرحان أمام تلك الشبيبة موضوع معاناة الفلسطينيين تحت الحكم الاسرائيلي الصهيوني .

كنت في عمان أتصفح ذات ضحى جريدة « الأنوار » اللبنانية ، وأمامي فنجان أحتسي منه القهوة في مقهى « الدبلومات » ، ووجدتني أذهل وأصعق وأنا أمضي في قراءة مقال مزدحم بتهم وافتراءات موجهة ضد الشاعرين ؛ كان واضحا كل الوضوح أن هدف الكاتب المفتري تحطيم هذين الرمزين الوطنيين وتشويه صورتيهما في الوجدان العربي فقبل ذلك بيومين فقط ، كانت صديقة لي في عمان ، ممن حضروا مهرجان صوفيا ، قد حدثتني عن روعة موقف الشاعرين الفلسطينيين في المهرجان ، وكيف كانا ينفصلان عن الوفد الاسرائيلي ليلتحقا بصفوف الوفود العربية ، منشدين ، مع المنشدين من الشباب العرب ، الاناشيد الوطنية بكل ما يملؤهما من حيوية وحماسة .

نهضت للفور لأشتري من مكتبة ملاصقة للمقهى بعض الأوراق، وعدت لأكتب في ذلك المقهى رسالة الى المرحوم غسان كنفاني – وكان آنذاك محررا في جريدة الأنوار – ضمنتها عتبي الشديد على الجريدة للسماح بنشر ذلك المقال الخطير والمغرض ، ثم حدثته عما يعانيه الشاعران في وطنهما بسبب مواقفهما الوطنية الملتزمة ، ومقاومتهما لسمك القرش فيما هما يكابدان تجربة الغربة والاغتراب واللجوء في أرض الوطن السليب . قلت في تلك الرسلة : « ... أنت يا غسان أول من عرفنا بشعراء المقاومة الرافضين ، وأنت أول من علّمنا تقديس أولئك الذين يقاتلون العدو الصهيوني الشرس من جبهة الكتابة ،

فكيف تسمح بنشر ذلك المقال ؟ . » . وحين زرت غسان في جريدة الأنوار ببيروت ، عبّر لي عن حقيقة كونه لم يطّلع على المقال قبل ظهوره في الصحيفة ، لتغيبه يومئذ عن المكتب في الجريدة ، ولولا ذلك لحال دون نشره . كما حدثني عن مقال شبيه من حيث الطعن بمحمود ، كان قد تلقاه من فتاة فلسطينية تحاول كتابة الشعر ، وكانت هذه الفتاة قد غادرت اسرائيل قبل سنوات قليلة لتقيم في بيروت ، ولما كان مقالها يشي بحقد شخصي ، وبالاصطياد بالماء العكر ، فقد مزقه والقاه في سلة المهملات .

(٤)

وأعود إلى بضعة أسابيع تنقضي على الصدمة التي أصابتنا بها عدوان حزيران ؛ شهران أو أكثر بقليل نسترد بعدهما وعينا ، ونفيق من الذهول ، وتبدأ مرحلة الرفض ، وتبدأ المقاومة والتعامل مع التحديات الصعبة ، بدءاً من تهويد القدس وضمها إلى الكيان الصهيوني (فمنذ اليوم الأول لسقوطها أخذت جرافات رئيس بلديتها تيدي كوللك تزيل ما سمي بالأرض الحرام ، وتمحو في القدس الشرقية معالم وتُنشيء معالم ، ناهيك عن تطويق المدينة المقدسة بالعمارات الجديدة الضخمة التي شوهت وجه القدس وأخفت أجمل بنوراما كانت تصافح عيون الداخلين اليها عبر منطقة الشيخ جراح) مرورا بمواجهة التدابير القمعية متزايدة القسوة : العقاب الجماعي ، الإبعاد وطرد العناصر الوطنية والقائهم وراء النهر على الضفة الشرقية ، مصادرة الأراضي ، الإعتقالات ، التحقيق والتعذيب الرهيب ، الزنازين ؛ أحد مدراء السجون يتباهى قائلاً : « إننا نعطيهم الحد الأدنى من شروط الحياة ،

والحد الأعلى من المضايقات ، هذه هي الأوامر ، وأنا أنفذ الأوامر » .

على أثر إعتقال الشقيقات المناضلات الثلاث : « سعادات » ، و «رندة » ، و « هبة » إبراهيم النابلسي ، صدر قرار السلطة العسكرية بنسف بيتهن في البلدة القديمة بنابلس ، وكان ذلك البيت آخر ما تبقى لتلك العائلة التي فقدت جميع أملاكها في فلسطين منذ العام ١٩٤٨ ،حين استولى العدو عنوة وقهراً على أراضي عرب فلسطين وأملاكهم لينشيء دولته ويحقق الحلم الصهيوني ضمن الواقع الجديد . وللحيلولة دون تنفيذ القرار بنسف البيت ، جرى العمل والسعي الدؤوب من جهات عديدة لإلغاء القرار . مضيت بصحبة الحاج معزوز المصري ، والمرحومة الحاجة عندليب العمد ، والمرحوم ابن عمي قدري طوقان ، حيث تم الإجتماع في حاكمية نابلس بقائد المنطقة العام « فاردي » . بدأ فاردي يتحدث عن العنف في ميدان حركة المقاومة ، وعن إصرار القادة الإسرائيليين المسؤولين وتصميمهم على القضاء على ذلك العنف بكل الوسائل ، وراح يتغنى بعدم اللجوء إلى الحكم بالإعدام في إسرائيل .
قلت له حينئذ إن التعذيب الذي تمارسونه على المعتقلين الفلسطينيين كثيراً ما أدى إلى نتائج وحالات أفضل منها الموت ، كالإصابة بالعتة والتشويه الجسدي والنفسي . وتصدى قدري لفاردي قائلاً : إن إستمرار الإحتلال هو المسؤول عن ترسيخ فكر العنف في المقاومة ، وهو وليد الإتجاه التوسعي كمصادرة الأراضي . وتساءل الحاج معزوز

المصري قائلاً : كيف يمكن لفتيات فتّحن أعينهن على استيلاء إسرائيل منذ العام ١٩٤٨ على كل ما تملكه العائلة وفقدان كل شيء ، كيف يمكن لأمثال هؤلاء الفتيات أن يقفن موقفاً سلبياً تجاه واقع الإحتلال الجديد ، فلا يستجبن للدوافع الكامنة في نفوسهن بفعل ضياع ثروة العائلة واستيلاء الدولة الإسرائيلية على كل ما تملك ، هذا بغض النظر عن كون رفض الاحتلال ومقاومته هو شعور طبيعي لدى أفراد شعب فقد حريته واستقلاله و كرامته .

(٥)

يظل الشعر هو الرد الأدبي الأسرع على الأحداث والتحديات ، ذلك أنه بطبيعته لغة الإنفعال والإشتعال العاطفي ؛ من هنا فهو بالتالي أكثر تلقائية من أشكال التعبير الأدبية الأخرى ، كالقصة والرواية والمسرحية ، فهذه الأشكال من التعبير تحتاج إلى البعد الرابع ، البعد الزمني ، كما أنها تحتاج إلي حال من التأمل والإختمار الفكري قبل أن تخرج عملاً أدبياً يقوم بالدور الفعال والدعوة إلى تغيير الواقع البشع المرفوض .

وهكذا ، ومن هنا ، سرعان ما بدأ إندماجي بالجماهير في لقاءاتي الشعرية بهم ، تلك اللقاءات التي كانت الهيئات الوطنية تنظمها سراً في مختلف بلدان الأراضي المحتلة ، كالقدس ورام الله والبيرة وبيت لحم وغزة وبيت جالا ، وكان يتم ذلك بحضور رؤساء بلديات تلك المدن لندواتي الشعرية .

في اليوم التالي لأمسيتي الشعرية في بيت جالا ، تبين أن بعض اليهود الشرقيين من رجال المخابرات الإسرائيلية كانوا قد اندسوا بين الحضور ، وهؤلاء يصعب تمييزهم عن أبناء العرب . فقد فوجيء رئيس البلدية آنذاك السيد البندك وبعض الرجال البارزين ممن حضروا الأمسية الشعرية بالحاكم العسكري في بيت جالا يستدعيهم واحداً واحداً ، حيث أنحى باللوم الشديد على رئيس البلدية لموافقته على تنظيم تلك الندوة وحضوره وحماسته لها . ثم التفت إلى المرحوم توفيق قطان ، أحد رجال الأعمال البارزين في الضفتين ، التفت إليه قائلاً : وأنت ، أنت ابن السبعين عاماً ، إذا كانت قصائدها قد أثارت حماسك إلى ذلك الحد ، فكيف بتأثيرها على جيل الشباب ؟ وحين جاء دور عضو البرلمان الأردني السيد ربحي مصطفى خاطبه الحاكم العسكري بكلمات حادة ولهجة غاضبة متسائلة : « ترى هل كان إندفاعك إلى المنصة ومصافحتك الحارة لها بدافع الإعجاب بشخصيتها أم بأشعارها؟.

بعد ذلك بأيام قليلة قام وزير الحربية موشيه دايان بجولة من جولاته في الأراضي المحتلة ؛ وفي بيت جالا استدعي رئيس البلدية إلى دائرة الحاكم ليستمع إلى دايان منذراً ومحذراً إياه من تكرار تنظيم مثل ذلك اللقاء الشعري مع الجماهير في بيت جالا ، أو بيت لحم ، حيث الهدوء واستتباب الأمن « فحذار من اللجوء إلى مسببات التهيج والإثارة في هذه المنطقة » .

في الأسبوع الأول من أكتوبر العام ١٩٦٨ اكتشف الاسرائيليون كمية هائلة من أنواع المتفجرات المختلفة في بيت الهدهد بالبلدة القديمة بنابلس ، فجاء وزير الحربية يركض اليها غاضباً مستفزاً ، فقد كانت مدينة بيسان قد ضُربت بشدة بصواريخ الفدائيين قبل اكتشاف المتفجرات بيوم واحد فقط . جاء دايان ليطلب من رئيس بلدية نابلس آنذاك المرحوم حمدي كنعان استدعاء بعض رجالات المدينة .

قال للمجتمعين : « ما الذي تريدونه يا أهالي نابلس ؟ هل تريدون مقاتلة إسرائيل ؟ إذن تفضلوا وافعلوا إن كنتم قادرين ؛ أنا لا أطالبكم بالتعامل معنا ، ولكن عليكم على الأقل أن تحرصوا على سلامتكم ، فهذه المتفجرات التي وجدناها اليوم لو انفجر منها لغم واحد لكان كافياً لتدمير نصف نابلس ، ثم هناك تلك الشاعرة لديكم والتي تكفي قصيدة من قصائدها لخلق عشرة من رجال المقاومة ... » .

هنا رد رئيس البلدية قائلاً : ماذا تتوقعون غير ذلك ؟ بلدنا تحت الإحتلال ومن حق الناس مقاومة الإحتلال . فقال دايان : أتريدونها فيتنام؟ قال حمدي : قدها وقدود ! – وهذا تعبير عامي في نابلس يعني : نحن لها .

بعد مغادرته لنابلس وفد عليَّ المرحوم حمدي لينقل إليَّ رغبة وزير الحربية في إجراء لقاء معي ، وقد تم في اليوم التالي تحديد موعد

المقابلة بينه وبين مستشار الوزير ديفد فرحي .

في اليوم المحدد للإجتماع انطلقت بنا بعد الظهيرة سيارة رئيس البلدية ، يرافقنا ابن عمي قدري ، فلفت انتباهي اتجاه السيارة غرباً ، وكان توقعي أن تتجه شرقاً حيث الطريق إلى القدس ، سألت : إلى أين نحن ذاهبون ؟ قال رئيس البلدية : إلى تل أبيب . ولم أشك لحظة واحدة في أن اللقاء سيكون في إحدى الدوائر الرسمية هناك .

ساعة وبعض الساعة . أخذت السيارة تخترق بعض شوارع تل أبيب ، لتفضي منها إلى إحدى الضواحي ، ولتقف أمام أحد البيوت هناك ، وليفجأني مرأى دايان واقفاً خارج الباب وقد بسط راحتيه مرحباً بالقادمين.

انتفضت أعماقي استياءاً واستغراباً .

في بيته إذن ؟!

يا للتناقض ويا للمفارقة .

أنا التي أمثل بقصائدي الرفض ومقاومة الإحتلال ، أمضي إلى دايان في بيته ، وكأنني أقوم بزيارة خاصة لوزير الحربية ، ممثل الإحتلال والعدوان ؟!

ما العمل ؟ وكيف أتصرف ؟

مصيبتي الكبرى هي هذه الطبيعة الخجول ، وهذا العزوف الغريزي عن اتخاذ المواقف التي قد توهم الآخرين ، ممن لا يعرفونني على حقيقتي ، بأنها مواقف استعراضية بهدف لفت الأنظار ؛ هل أعاند وأصر على رفض الدخول إلى المنزل ؟ أو ليس في هذا ما يحرج رئيس البلدية .

أشهد هنا أنني كثيراً ما أجدني قد ورطت نفسي فيما لا أحب من الأمور ، لكي أجنب الآخرين ما قد أسببه لهم من إحراج .

تقدمنا دايان ليمضي بنا إلى غرفة الجلوس الغاصة رفوفها بالقطع الأثرية ، هناك عرّفني على اثنين من مستشاريه كانا جالسين في الغرفة : ديفد فرحي وديفد زخريا . لم نكد نتخذ مقاعدنا حتى دخلت زوجته وابنته يائيل الكاتبة الروائية ، لتسلما علينا ببشاشة وترحيب .

لم يلبث دايان أن بدأ الحديث معي قائلاً – وقبل أن يجلس – : أنت تكرهيننا ، لقد قرأت بعض قصائدك مترجمة إلى العبرية . إنها تفيض بالكلمات العاصفة ومشاعر الكراهية .

قال ذلك ثم جلس قريباً مني .

قلت : لست أكرهكم كيهود ، لكنني أكرهكم كمحتلين . إن لليهود حقاً في حياة حرة كريمة بعد الذي عانوه في أوروبا ، ولكن هناك حقيقة أخرى وهي كون البلاد العربية سواء منها دمشق ، أو بغداد ،

ظلت هي المكان الوحيد الذي أمنوا فيه على حياتهم على مدى قرون من الإضطهاد والذبح والطرد الذي مارسته دول أوروبا عليهم ؛ نعم لقد عانى اليهود كثيراً ولكن لماذا نكون نحن الفلسطينيين من يدفع الثمن ؟ لقد ذهبت بعد سقوط حاجز السنوات العشرين إلى حيفا ويافا وعكا فهزني ما رأيت من بيوت عربية مهجورة ، ومن ركام الدور المهدمة ، التي ما تزال أطلالها ماثلة منذ حرب العام ١٩٤٨ ، كما هزني ما رأيت من سوء حال العرب هناك وفي اللد والرملة والقرى التي زرتها ، فلم أملك إلا التعبير عن مشاعري تجاه وطني وتجاه شعبي ، أتراك تلومني على ذلك ؟ قال : كلا ، لست ألومك ، بل أنا أقدرك ، وأتمنى لو أن لدينا شعراء وطنيين مثلك ، لكن ما هي النتيجة ؟ قلت : أعتقد لو أنكم تنسحبون من أراضينا المحتلة فإنكم ستمهدون بذلك سبيلاً إلى الحل . قال: وكيف ننسحب وهناك لاءات جمال عبد الناصر في الخرطوم ، لا سلام ولا إعتراف ولا مفاوضات ؟ قلت : لقد ألغيت هذه اللاءات الثلاث تلقائياً منذ قبل عبد الناصر بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . قال : لقد انسحبنا العام ١٩٥٦ من سيناء ، ومن غزة ، وبقيت المشاكل قائمة . لن يجلس عبد الناصر معنا على مائدة مفاوضات ، وعليكم أن تكونوا فخورين به . إنني على يقين من أنه لا يوجد زعيم أو رئيس دولة عربية باستطاعته التأثير على عبد الناصر بهذا الصدد ، ونحن باستطاعتنا التحدث مع بعض الزعماء لو أن في مقدورهم التأثير عليه . الفلسطينيون وحدهم هم القادرون على أن يؤثروا على عبد الناصر .

هنا التفت إلى رئيس البلدية وإلى ابن عمي قدري متسائلة : ومن يفعل ذلك ؟ قال دايان : إفعلي أنت ذلك . فقال المرحوم حمدي كنعان بلهجة حادة : ما الذي سيقوله الفلسطينيون لعبد الناصر فيما أنتم ترفضون الإنسحاب من القدس وسيناء وهضاب الجولان و والخ . ؟ فأجابه دايان قائلاً : إنني الإبن الروحي لبن غوريون ، وأتبنى أفكاره ، ولقد صرّح بن غوريون قبل أسبوع في الكنيست ، وفي مؤتمر صحفي قائلاً أنه لا يهمه حجم إسرائيل لو ظل صغيراً ، إن كل ما يريده هو حدود آمنة ومعترف بها . عندئذ سألته : وماذا عن اللاجئين ؟ قال : في حال عودتهم لن يبقى هناك شيء اسمه إسرائيل . قلت : حتى لو وافقتم على عودتهم فلن يرغبوا جميعاً في العودة . قال : نحن نصرّ على رفض إعادة أي عدد منهم مهما قلّ ، وعلى فرض الموافقة فسوف نكون نحن من يختار أسماء العائدين .

إنتقل الحديث بعد ذلك بينه وبين قدري حول مناهج التعليم في الضفة ، والتي كان في نية دايان تغييرها بعد الإحتلال مباشرة لولا تصدي قدري لهذا الأمر ، بحيث اقتنع دايان بحذف بعض الصفحات فقط وليس التغيير أو « التهويد » الشامل . كما دار الحديث بينه وبين رئيس البلدية حول شؤون البلدية بنابلس .

قبل إنتهاء الإجتماع الذي استمر من الثالثة حتى الخامسة مساءاً سألني دايان : هل هناك شيء أستطيع أن أفعله ؟ هنا رجوته إعادة

السيدة زليخة الشهابي التي أبعدها الحكم العسكري إلى عمان ، فشقيقها العجوز مريض وليس له من يرعى شؤونه سواها . قال : أنا لا علاقة لي بالقدس ، نعم ، إن الشعب الإسرائيلي يحبني ، غير أنني لا أعرف إذا كان لي قوة تأثير على المسؤولين في القدس ، لكنني سأحاول المساعدة لإعادتها من عمان إلى بلدها (وقد أعيدت فعلاً إلى القدس بعد حوالي عشرة أيام) . وقد حدثته كذلك عن السجين وليم نصار المحكوم بالسجن المؤبد ، الذي يحرمون أمه من زيارته في السجن ، فقال بلهجة من يسائل نفسه : أمّ تبغي رؤية ابنها السجين ، وماذا في ذلك ؟ وهكذا تم السماح لأم وليم نصار بزيارة ابنها .

حين عرجت على موضوع السجينات الفلسطينيات في إسرائيل مثل عبلة طه ، ولطيفة الحواري ، والآنسة جودة ، وسواهن ، وأشرت إلى مدى ما يعانينه من تعذيب ومن ممارسات قمعية رهيبة . نفى ذلك قائلاً إن هناك أوامر بعدم التعذيب في السجون . هنا قالت ابنته يائيل : بلى ، هناك تعذيب ... إنهم يضعون الفتيات العربيات مع السجينات اليهوديات « العاهرات » ، ولهؤلاء دورهن حيث يمارسن أساليبهن الخاصة في تعذيب الفتيات السجينات من العرب .

قبل مغادرتنا قدمت إليّ يائيل روايتها (DEATH HAD TWO SONS) مع عبارة إهداء تقول فيها : « على أمل تفاهم أفضل على الأقل» . فأرسلت إليها بالمقابل إحدى مجموعاتي الشعرية ، فلقد قدّرت

لها صدقها وصراحتها في تصديها لأبيها بشأن تعذيب السجينات الفلسطينيات حين أكدت حقيقة ذلك التعذيب .

في طريق عودتنا أخبرت ابن عمي قدري ورئيس بلدية نابلس أنني لا أحب أن يبقى أمر ذلك اللقاء سراً مخفياً ، حتى لا تُثار حوله في المستقبل الإشاعات والأقاويل ، إذ لا بد من إنتشاره في الأخير بطريقة أو بأخرى على غفلة منا ... فلا بد لي من توضيح الأمر على حقيقته وكما وقع . وهكذا تمّ لي إجتماع صبيحة اليوم التالي في مصبنتنا ببعض المهتمين بالشؤون الوطنية ، حدثتهم فيه عن الحوار الذي جرى بين دايان وبيني ، فلم يرَ أحد منهم بأساً فيما جرى ، فقد سبق أن إجتمع دايان بعديد من رجال الضفة الغربية بقصد الحوار وجسّ النبض من خلال تبادل الأفكار ، وتتبع آراء المهتمين من أهالي الضفة بالقضية التي نعيشها وبالواقع الجديد .

* * *

(٦)

كان من عادتي قضاء بضعة أسابيع في القاهرة في فصل الشتاء بين العام والآخر ، وكلما تيسرت لي الظروف . لقد ظلت هناك علاقة نفسية قائمة بين القاهرة وبيني . فمن خلال صحافة مصر الأدبية ، وبالذات مجلة « الرسالة » لصاحبها المرحوم أحمد حسن الزيات ، انتشرت قصائدي وعرفني قراء العالم العربي ، مما كان عاملاً مؤثراً شجعني على الثبات والإستمرارية في مسيرتي الشعرية . فحين توفي شقيقي إبراهيم كنتُ لا أزال في بداية الطريق والحاجة إلى التوجيه والتشجيع برغم ثقتي بنفسي ؛ وهكذا ، وبفقدي لأستاذي ومعلمي الأول والأخير وجدتني وحيدة على الطريق ، لا هادي ولا دليل ، أكتب القصيدة وأتلفت حولي خلف جدران سجن الحريم والحجاب ، وفي قمقم التقاليد المحكم الإغلاق ، فلا أجد من أقرأ عليه قصيدتي لاستشف من خلال رأيه فيها مدى توفيقي أو فشلي .. انعزال خانق ، وحرمان تام من أية علاقات بشرية ، أو صلات أدبية يمكن أن تفيدني

وتكون عاملاً مساعداً على تثبيت قدمي في أرض الطموح الأدبي والتطلع البعيد . لسوف أظل مدينة لمجلة « الرسالة » ولصاحبها رحمه الله ولسوف أظل مدينة لمصر العظيمة ، حافظة لها جميلاً لا ينسى ، وإذا كانت قدمي لم تطأ أرض مصر منذ رحيل الزعيم العربي العظيم جمال عبد الناصر ، فإن مصر جمال عبد الناصر ستبقى في القلب ، وفي القلب أبداً .

في ديسمبر العام ١٩٦٨ توجهت إلى مصر في زيارة استجمام عادية ، دون أن يجري في بالي ولا حسابي السعي للإجتماع بعبد الناصر .

كنت قد شرعت بعد الإحتلال الإسرائيلي ، في تسريب قصائدي إلي مجلة الآداب في بيروت ، وإلى الشاعر فاروق شوشة في مصر الذي راح يذيعها من خلال برنامجه المسائي الشهير « لغتنا الجميلة». كما كانت السيدة سامية صادق كثيراً ما تنشد قصائدي في برنامجها « حول الأسرة البيضاء » . ويوم التقيت بزوجها في مؤتمر الكتاب الافريقيين الآسيويين ببيروت قبيل حرب حزيران بقليل نقل إلي إعجابها وحبها لشعري . وهكذا تملكتني وأنا في القاهرة رغبة في انتهاز الفرصة للقيام بالتعرف الشخصي عليها وعلى الشاعر العزيز فاروق شوشة ، الذي أحببت دائماً شعره المتميز بالرهافة والصدق والجمال . وفي دار الإذاعة المصرية التقينا . كما ضمت الجلسة بعض المذيعين

والشاعر المرحوم صلاح عبد الصبور . وقبل الإجابة على سؤالهم عن إجتماعي بدايان بادرني الشاعر فاروق شوشة بقوله إنه لم يلتفت لأحد موظفي الرصد الإذاعي حين هرع إليه فور إعلان الإذاعة الإسرائيلية لنبأ الإجتماع بدايان ، هرع إليه طالباً منه الكف عن إذاعة قصائدي . من ناحيتي .لم أستغرب تصرف الرصد التلقائي ، فهكذا نحن دائماً ، نستجيب لردة الفعل السريعة لدينا ، دون الوقوف لحظات عند الخبر أو الحدث للتأمل فيه ، وللتأكد من حقيقة وقائعه ، وخلفيات تلك الوقائع قبل صدور الادانة الارتجالية .

وفي حفلة عشاء دعاني إليها الإستاذ أحمد بهاء الدين في بيته ، سألني المدعوون عن القصة فسردتها بحذافيرها .

لم يكد يمضي يومان على حفلة العشاء حتى فوجئت بالسيدة جيهان السادات ترحب بي عبر الهاتف ، اذ علمت بوجودي في القاهرة من صديقتها السيدة ديزي زوجة الاستاذ أحمد بهاء الدين ، وقد دعتني إلى تناول فنجان شاي برفقة السيدة ديزي ، ثم أردفت : وها هو أنور يضم صوته إلى صوتي ويقول لي : « لا تكوني أنانية ، أنا كذلك أحب أن أراها » ، فشكرت للسيدة جيهان جميل ترحيبها معبرة عن سعادتي بتلبية دعوتهما الكريمة .

في اليوم التالي مضيت عصراً برفقة السيدة ديزي إلى بيت أنور السادات ، وحول فنجان الشاي دار الحديث عن أوضاعنا في الضفة ،

ثم تفرع ليدور حول لقائي بدايان . سألتني السيدة جيهان عما إذا كان قد سبق لي لقاء الرئيس ، فأجبتها بالنفي . قالت : هل تحبين اللقاء به ؟ قلت : هذا حلم حياتي منذ حرب السويس وما سبقها من تأميم للقنال ، بالرغم من عدم محاولتي تحقيق هذا الحلم ، وذلك من منطلق إدراكي أن زعيماً مشغولاً مثله بقضايا كبيرة ومصيرية ليس في إمكانه مقابلة كل من رغب في لقائه .

هنا قال أنور السادات : سأقوم بترتيب موعد لك مع الرئيس ، فشكرته من أعماقي .

مرت أيام قليلة اتصلت بي بعدها السيدة جيهان لتقول لي على الهاتف أن الرئيس سيكون في إنتظاري في بيته بمنشية الكبرى ، في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة . كان ذلك اليوم المحدد أول أيام شهر رمضان .

في بيته البسيط ، المتواضع ، وفي غرفة الإستقبال الخالية من أي مظهر من مظاهر الفخفخة ، جلست أنتظر تائقة متطلعة .

دقيقتان ، وأقبل الراحل العظيم بخطواته الواثقة ، واطلالته المهيبة الجميلة ، فنهضت مسرعة إليه ، وحين مددت يدي للمصافحة ، أخذ راحتي بين راحتيه مبتسماً ، مرحباً . جلس قريباً مني ، وبدأ الحديث بالسؤال عن أحوالنا في الوطن ، فرسمت له صورة شاملة عن تلك

الأحوال ، كما حدثته عن تشبث الجماهير هناك بالرئيس عبد الناصر ، وهتافهم في المظاهرات بترديد اسمه : ناصر ! ناصر ! غير هيابين ولا وجلين من الجيش الإسرائيلي الشرس . وهنا ذكر لي أنه ما كان ليقبل بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لولا حرصه على انقاذنا من قبضة الإحتلال الصهيوني . كما ذكر لي أن دين راسك ، وزير خارجية أمريكا حينذاك ، كان قد حثه على الوصول إلى تسوية مع إسرائيل مقابل الإنسحاب الكامل من شبه جزيرة سيناء ، ولكنه رفض الموافقة رفضاً قاطعاً لخلو ذلك العرض من ذكر الضفة الغربية ، واستطرد رحمه الله قائلاً : « إن سيناء بكل ما فيها من نفط وثروات معدنية لا تهمني بقدر إهتمامي بالضفة وسكانها . فحين مرّ بي الملك حسين وهو في طريقه إلى أمريكا لأول مرة بعد حزيران ، قلت له أن يرضى بأي إتفاق مع المسؤولين هناك إذا كان في ذلك ضمان إسترجاع الضفة الغربية ، ولكن أمريكا رفضت التوصل مع الملك حسين إلى أي إتفاق » .

ثم انتقل إلى الحديث عن همومه الداخلية ، كمشكلة اللاجئين من سكان مدن القنال ، والأزمة الاقتصادية . قال : « وها هي المظاهرات تهب اليوم في المنصورة . لقد مرضت بعد الهزيمة ؛ أحد عشر يوماً لم يغمض لي فيها جفن ولم أتناول شيئاً من الطعام أو الشراب . مضيت إلى الإتحاد السوفياتي للمعالجة ، وطلبت من الروس سلاحاً لإعادة بناء الجيش ، ولكنهم رفضوا طلبي ، وتحت الحاح مني وافقوا ، على أن لا

يذهب السلاح ترانزيت إلى أيدي الإسرائيليين . وحين طلبت خبراء روسيين تشددوا في الرفض . لكنهم استجابوا في الأخير ؛ والجيش المصري جاهز الآن ومكتمل . إنني انتظر فقط اللحظة المناسبة لضرب إسرائيل . إن لدى إسرائيل مشاكل كما لدينا . عندما كنا أطفالاً في الصعيد ، كنا نلعب لعبة العض على الأصابع ، فيعض الواحد على إصبع الثاني ، والذي يقول «أخّ» قبل صاحبه يكون هو المغلوب ، ولو لم يقلها وانتظر لحظة أخرى فإن صاحبه سيقولها حتماً . إن الإسرائيليين يعانون من متاعب ليست أقل من متاعبنا ، والمسألة تحتاج فقط إلى بعض الصبر » .

وكان يعلق بعض الآمال علي نيكسون ، قال : « إنه صديق متفهم ومتعاطف ، وكنت قد استضفته هنا في هذا البيت ، وها هو قد فاز في انتخابات الرياسة بالرغم من كون اليهود لم يعطوه إلا أقل الأصوات » .

لقد تحدث رحمه الله أكثر مما تحدثت بكثير ؛ إنه متحدث متدفق، بارع وصادق ، يشدك إليه ويمتلك مشاعرك بما تلمسه من صدقه مع نفسه . أما موضوع دايان فلا هو تطرّق إليه ولا أنا ، فما كان في نيتي أن أفعل إلا إذا سألني هو عن الموضوع . كنت على يقين من علمه بالأمر، والشيء الوحيد الذي نقلته إليه هو قول دايان « عليكم أن تكونوا فخورين بعبد الناصر » .

استمر اللقاء بالرئيس ساعة وأربعين دقيقة ؛ لم يحضر ذلك اللقاء أي شخص آخر ، وحين نهض كلانا قلت له وأنا أصافحه وراحتي في راحتيه : ستظل أنت الرمز العظيم ، والأب الحاني للأمة العربية ؛ أنت كل شيء لنا ، وأسأل الله أن يحقق الآمال ويزيح عنك وعنا هذه الغمة .

وخرجت من لدنه مشحونة بالأمل والتفاؤل .

* * *

(٧)

كان من الطبيعي أن أتحدث لأقربائي وأصدقائي عن إجتماعي بالرئيس جمال عبد الناصر ، لكن النبأ لم يلبث أن انتشر وذاع وشاع .

فوجئت ذات يوم بمستشار دايان ، ديفيد فرحي ، ينقل إليّ على الهاتف رغبة الجنرال في مقابلتي . سألت : أين ؟ قال : في الحادية عشرة صباحاً من نهار غد ، والمكان هو فندق الملك داوود في القدس . ستجدينني في إنتظارك لدى مدخل الفندق .

قال دايان : « عرفت عن اجتماعك بعبد الناصر ، لست أطالبك بمصارحتي بكل ما دار بينكما من حديث . بوحي فقط بما تشائين البوح به وأمسكي عما تشائين » . فأجبته بالحرف الواحد : « لم يدم الإجتماع أكثر من عشرين دقيقة ، سألني خلالها عن أحوالنا في الضفة ، وأبدى إهتمامه بأوضاعنا ، وتأكيداً منه على إهتمامه بنا ذكر لي أنه لولا الضفة

الغربية لما كان قبل بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، ولما رفض وعد دين راسك وزير خارجية أمريكا باعادة سيناء إليه مقابل تخليه عن التمسك بالضفة الغربية وبالقضية الفلسطينية العربية ، هذا كل شيء ولا أكثر من ذلك » .

والذي يبدو لي أنه لم يصدق بينه وبين نفسه أنني لم أتحدث إلى الرئيس عبد الناصر عن اجتماعي به . ولعله استنتج من قولي أن جلستي مع عبد الناصر لم تدم أكثر من عشرين دقيقة ، لعله استنتج من ذلك أن الرئيس ـ لم يكن حفيّاً بي بسبب لقاء تل أبيب ، فقد نشرت جريدة Jerusalem Post بعد ذلك مقالاً كبيراً جاء فيه على لسان دايان قوله : «... بعد شهرين قابلت فدوى طوقان ثانية ، هذه المرة في فندق الملك داوود في القدس . الشخص الوحيد الذي كان معنا هو ديفيد فرحي (لعل دايان نسي أن ديفيد زخريا كان حاضراً بالاضافة إلى شخص ثالث لم أعرف إسمه . «ف») كانت فدوى قد زارت مصر ورأت جمال عبد الناصر . قال لها جمال عبد الناصر أن دين راسك وزير الخارجية الامريكية قد حثه على الوصول إلى تسوية مع إسرائيل مقابل إنسحاب الجيش الإسرائيلي من سيناء انسحاباً شاملاً ، لكن ناصر رفض ذلك لأن تلك التسوية لا تشمل الإنسحاب من الضفة الغربية . فدوى قالت إنها أخبرت ناصر بحديثها معي (لم أقل ذلك . «ف») ولكنه عنفها على ذلك ، وهكذا لم تعد بأخبار ايجابية !!

قبل نهاية اللقاء حدثني الجنرال دايان عن رغبته في الإجتماع بـ (أبو عمار) .

* * *

في ديسمبر ١٩٦٨ كانت جماعة من المقاومة الفلسطينية قد اجتازت نهر الأردن واتخذت لها مقراً في الجبال المطلة على وادي القلط على بعد خمسة كيلو مترات غرب أريحا .

في الرابعة والنصف مساءاً من نهار يوم الجمعة ٢٠ ديسمبر ١٩٦٨ وقد أخذ الغسق يتكثف ومساء السبت يقترب ، حصل احتكاك بين جماعة المقاومة (فتح) وبين وحدة عسكرية اسرائيلية كانت قد حاصرتهم لعدة أيام بقيادة زيفي عوفر . قبل ذلك كان عوفر أول حاكم عسكري لمدينة نابلس بعد الإحتلال ، عُرف في المدينة بالشدة والغطرسة وباحتقاره لشعبنا المحتل . في كتابه (قصة حياتي) تحدث موشيه دايان عن خلافه مع وجهات نظر عوفر العنجهية بالرغم من حبه وتقديره لعوفر ، وعزاها إلى افتقاره إلى الثقافة وإلى عدم أخذه للأمور بأناة ودهاء . كان دايان يرفع شعار خنق الفلسطينيين تحت الإحتلال باليد الحريرية بدلاً من إستعمال اليد الحديدية ، إذ كانت سياسته تدعو إلى الشدة في الأمور الأمنية والتسامح في المسائل المدنية .

في مساء ذلك النهار من يوم الجمعة أطلق فرسان المقاومة الفلسطينية النار على الوحدة العسكرية الإسرائيلية التي كانت تتعقبهم ثم لاذوا ببعض الكهوف . كان واضحاً أن قدر أولئك الفدائيين قد تقرر

منذ اللحظة الأولى التي فتحوا فيها النيران على العدو . فقد أخذ رجال عوفر يحاصرونهم من كل جانب ، فيما تحلّق فوقهم طائرة هيليكوبتر ينطلق منها صوت قائد إسرائيلي مهيباً برجال المقاومة بواسطة مكبر للصوت أن يستسلموا ، ولكن عبثاً ... عندئذ أصدر عوفر أمره باطلاق النار بكثافة باتجاه الكهوف ، وأخذت مجموعة الجنود تتقدم ببطء وحذر عبر مسالك الوادي الذي تطل عليه الكهوف . لم يلبث أن انكشف اثنان من الفدائيين في كهف على بعد تسعة أمتار أمرا بالاستسلام ، ولكن أحدهما قال إنه جريح ولا يستطيع النزول إليهم . هنا تسلق الجنود نحوهما وقبضوا عليهما . وقد كشف التحقيق معهما أن مجموعتهم قد أرسلت لتضرب مواقع في القدس . في تعقبها لبقية المجموعة الفدائية اتجهت القوة العسكرية بقيادة عوفر نحو أحد الكهوف فوق منحدر الوادي ، وقد أهاب رجاله بالمجموعة غير المنظورة طالبين الإستسلام ، غير أنهم لم يظفروا بجواب . هنا أطلقوا زخة كبيرة من النيران نحو الكهف ، ومرة أخرى لم يظفروا بجواب ، مما جعل عوفر يعتقد بأن الفدائيين قد سقطوا قتلى داخل الكهف أو أن الكهف خال . أما الحقيقة فهي أن ثلاثة منهم كانوا مختبئين خلف حنية داخل الكهف حمتهم من أن يصابوا بأذى .

تحرك عوفر وجنوده واقتربوا من فم الكهف ليكملوا البحث . فجأة انفجرت في وجوههم نيران الرصاص من داخل الكهف فأصيب

عوفر برصاصتين اخترقت إحداهما الرئة اليسرى وضربت الثانية الشريان السبّاتي في العنق . كان عوفر على مسافة قريبة جداً من فم الكهف بحيث ألقت به زخات الرصاص في واد بعمق أحد عشر متراً . في نفس الوقت كان الظلام قد هبط ، وحين وصل إليه الجنود كان فاقد الوعي .

استؤنف البحث مع طلوع نهار السبت . قتل الجنود اثنين من مفرزة المقاومة ، وأسروا ستة . كانت الذخيرة الكبيرة التي وجدوها تتألف من بنادق قنص ، وبازوكا واحدة ، وقنابل يدوية ، وخمسين قرميدة متفجرة ، وثلاثين أصبع ديناميت ، وقنابل زمنية ، وآليات أخرى . كما وجدوا نقوداً وملابس مدنية . أما عوفر فلم يكن على وعي بما انتهت إليه المعركة ، حيث كان قد قضى نحبه بعد عثور رجاله به في قعر الواذي بساعة واحدة .

في لقائي الثاني والآخير بموشيه دايان في فندق الملك داورد في القدس الغربية ، حدثني عما دار بينه وبين أحد أفراد منظمة فتح الذين وقعوا أسرى لديهم في معركة وادي القلط قرب أريحا . قال إنه اقترح على ذلك الأسير الذهاب إلى « أبو عمار » لينقل إليه رغبته - رغبة دايان - في الإجتماع به ، لكن الأسير الفلسطيني رفض أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة وفضل أن يبقى في الأسر . وقد عبر دايان في حديثه لي عن الإنطباع الجيد الذي تركه في نفسه ذلك الأسير من حيث ذكاؤه

وعمق ثقافته .

قلت لدايان : أستطيع أن أبلغ « أبو عمار » عن رغبتك في الإجتماع به إذا كانت تلك الرغبة لا تزال قائمة ، فرحّب بالفكرة .

كان ذلك في أوائل عام ١٩٦٩ كما أذكر ، وقد التقيت بقائدنا «أبو عمار » في عمان ونقلت إليه الخبر ولكنه رفض الاستجابة لطلب دايان .

في كتابه « قصة حياتي » لخص دايان هذه الحكاية على النحو التالي : « قد تكون فدوى إمرأة شجاعة ولا أعرف ما إذا التقت بأبي عمار ؛ إذ لم أسمع منها شيئاً حول هذا الموضوع » .

لقد استغربت حين قرأت هذا ، فالواقع أن ديفيد فرحي مستشار دايان في شؤون الضفة الغربية آنذاك كان قد استدعاني بعد عودتي من عمان طالباً إلي الإجتماع به في دائرة الحاكم العسكري بنابلس ليسألني عن ردة فعل (أبو عمار) فيما يتعلق برغبة دايان في لقائه ، فأخبرته بعدم موافقته على ذلك . ومن الواضح هنا أن ديفيد فرحي لم يحدث دايان بحقيقة رفض (أبو عمار) لفكرة اللقاء به .

* * *

(٨)

الحدود تفتحها الهزيمة ، والمسافات تقصر بين نابلس وغزة .

وأمضي مع مجموعة من العائلات التي لملمت نفسها في حافلة عمومية . تتجه بنا الحافلة ذات صباح باكر نحو مدينة غزة لزيارة الأقارب والأحباب فيها . كانت ابنة اختي زوجة الصديق زهير الريس ، أحد تلك الوجوه البعيدة التي غابت عني لسنوات عديدة ، هي في غزة وأنا في نابلس نمارس صعوبة التواصل واللقاء .

تشرف بنا الحافلة على أطراف غزة ، وفيما قلوبنا تخفق تطلعاً إلى لقاء الأحباب ، تفجؤنا وتتصدى لنا قوة إسرائيلية لتردنا على أعقابنا خاسرين : إرجعوا . ممنوع الدخول !

تصدمنا الخيبة ، يجتاحنا شعور قوي بالإحباط والإذلال . أمامي تجلس في الحافلة سيدة أخذت تتململ بعصبية مكتومة . لم تلبث أن

أدارت مفتاح ترانزستور صغير كانت تحمله . المذيع يقرأ نشرة الأخبار من إذاعة عمان ، لكن إصغائي كان موجهاً إلى صوت نفسي المقهورة وهي تتساءل بمرارة وحرقة : أية تعويذة هذه التي عقدتها حولنا قوى الشر ؟ ما الذي يجري في حياتنا نحن الفلسطينيين وإلى أين المصير ؟!

على حين فجأة ، وفي تلك الساعة الكئيبة من ذلك الصباح الكئيب ، يستقطب صوت المذيع انتباهي وهو ينعى صديقتي الفلسطينية سميرة عزام .

غير معقول . سميرة ماتت ؟

أردت أن أسمع كلاماً معقولاً ، ومن أين يأتي الكلام المعقول في دنيا كل ما فيها غير معقول ؟!

كانت سميرة شخصية درامية في حياتها وفي موتها . ظل هم فلسطين هو همها الأول والأكبر منذ الخروج عام ١٩٤٨ . وظلت القضية هاجسها في كل ما ابدعته من انتاج أدبي . كانت فلسطين دائماً وباستمرار هي المركز والبؤرة التي تتجمع فيها رؤاها واحاديثها .

ها هي سميرة عزام تموت بتأثير نوبة قلبية حادة ، باغتتها بين عمان ودمشق ، ماتت فيما هي تركض نحو الوطن ، نحو مدينتها عكا ، مدفوعة بانفعالها المتطلع إلى هناك ، إلى مرتع طفولتها وصباها ، إذ لم

تكد تسمع بفتح الحدود بين شطري فلسطين حتى هرعت إلى الأرض التي نبتت منها ، لتزيد في تعميق الجرح المفتوح ، ولتستخرج منه عناصر جديدة لأدبها الأصيل وألمها الكبير . لكنها تلفظ أنفاسها قبل الوصول . وتغيب شهيدة المعاناة المستمرة طوال اغترابها عن هذا الوطن الغالي المفقود،تغيب قبل أن تمسح عيناها أرضه وبحره وسماءه .

ومن مشارف جرش ، حيث قضت عليها الأزمة القلبية ، عادوا بها إلى بيروت لترقد هناك رقدتها الأخيرة مع اغترابها الأبدي عن الوطن .

كنا حين نلتقي نسهر الليل بطوله ، فلا نأوى إلى مملكة النوم قبل طلوع الفجر ، نخوض في حياتنا وحياة الآخرين . ننبش تجاربنا الحياتية دون تحفظ . كم كانت ذكية ، وكم لفت نظري ذلك الانضباط اللا أنثوي الذي كان سمة من سماتها ، فهي تحلّل الأشياء في عقلها ولا تترك الأمور للأعماق . كانت تدفن الأعماق وتغلفها دون النشوة والشجن .

كانت صديقة مريحة . اكثر ما شدني إليها هو ذلك الإطمئنان إلى طبيعتها الوفية غير المراوغة من هنا نبتت صداقتنا على أرض من الثقة والإطمئنان والصدق .

* * *

(٩)

يمر عام على الإحتلال الإسرائيلي للضفة والقطاع تظهر بعده فكرة الجسور المفتوحة والدمج الإقتصادي للمناطق المحتلة ؛ يأخذ موشيه دايان نظرية الجسور المفتوحة ويطورها ويوصي بها بحكم كونه وزيراً للدفاع آنذاك . وهكذا يتم فتح الجسور ويبدأ تواصل السكان بالأهل المقيمين في الضفة الشرقية .

لن أنسى كم كانت لهفتنا شديدة للقاء الأهل والأحبة بعد انقطاعنا عنهم ويأسنا من إمكانية عودة التواصل ، ناهيك عن اشفاقنا من الإنقطاع عن بقية العالم العربي مثلما حدث للفلسطينيين المقيمين في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٤٨ .

لم يكد يعلن السماح لنا بالحصول على تصاريح السفر وعبور الجسر إلى الضفة الشرقية حتى دفعت بنا اللهفة والشوق إلى التمسك بتلابيب الفرصة السانحة . راحت الألوف منا تتوجه نحو جسر« اللنبي»

وكان الجسر الوحيد الصالح للعبور وذلك قبل إصلاح جسر « دامية » وفتحه أمام المسافرين .

الحشد البشري يتدفق ويتجمع هناك أمام شباك التصاريح في انتظار المعاملات الرسمية والحصول على الإذن بالعبور . الوضع يفتقر إلى النظام وإلى الترتيب للعملية الجديدة ؛ الفوضى تنتشر والازدحام يرصنا بعضنا ببعض ؛ الحشد الهائل يزحف باتجاه شباك التصاريح ، الجنود يكبحون المسيرة بالعصي والعنف والشتائم ويطوقون الحشد من هنا وهناك . تدنو الجموع الأمامية من الشباك . الجندي القابع خلف الشباك يصفقه ويغلقه في وجوه الناس الملهوفين ، يرتفع صوت جندي آخر بالشتائم والصراخ آمراً الحشد بالتراجع والعودة إلى الوراء وعدم الإقتراب من الشباك . جندي آخر يدفعني بقبضة يده دفعة شديدة ، أوشك أن أهوي على الأرض ، أحد المسافرين يسندني من الخلف براحتيه ، الغضروف المنزلق في أسفل ظهري يلمع لمعة أوشك معها على الإغماء من شدة الألم ... شمس منتصف آب تحرقنا بأشعتها الملتهبة وتحوّل منطقة غور الأردن إلى ما يشبه الجحيم .

أنظر إلى الوجوه المعذبة حولي ، وجوهٌ مغموسةٌ بالعرق والهوان. يعتريني غم عظيم ويلفني حزن أعظم ، يشتعل في داخلي الغضب الملتهب ... يستحضر ذهني مقطعاً من قصيدة للشاعر الصهيوني مناحيم بيالك عنوانها (أناشيد باركوخبا) . وباركوخبا هو أحد رجال الحامية

اليهودية التي حاصرها الرومان في قلعة مسعدة ، يروون أن الحامية فضلت الانتحار على أن تقع أسيرة في يد الرومان خوفاً من الإنتقام ، حيث كان بعض اليهود المتدينين قد ذبحوا عام ٦٦م الحامية الرومانية المتمركزة آنذاك في القلعة . غير أن الرومان أعادوا السيطرة على مسعدة عام ٧٢ م عندما تمكن الفيلق الروماني من هدم أسوارها وذبح من فيها من اليهود انتقاماً لمذبحة عام ٦٦م . ويُروى أن قائد الحامية اليهودية اليعازر بن مائير خشي هذا الإنتقام فأجبر من معه على قتل نسائهم وأطفالهم ثم قتل أنفسهم بعد حرق ممتلكاتهم . على أن الباحثة اليهودية (ويس روز مارين) تقول أن نتائج دراستها تؤكد أن « مسادا » محض خرافة وأسطورة وأنه يمكن التدليل على سلامة المكتشفات التي تستند اليها الباحثة اليهودية .

كما ذكرتُ قبل قليل ، استحضرت في ذهني وأنا في تلك الحال الكئيبة من الحزن والشعور بالهوان والاذلال ، مقطعاً من قصيدة الشاعر « مناحيم بيالك » عنوانها « أناشيد باركوخبا » وضعها الشاعر على لسان باركوخبا مخاطباً بها العدو الروماني الذي كان يحاصر اليهود في قلعة مسعدة :

لقد جعلتمونا حيوانات مفترسة

وبقساوة وغضب

سوف نشرب دماءكم

ولا نرحمكم

إذا انتفض كل الشعب

وقام يقول : الإنتقام !

وبفعل تداعي الخواطر مر بذهني موقف هند بنت عتبة في موقعة «أحد» حين قُتل في تلك الموقعة حمزة عم النبي ، فانتزعت هند كبده ولاكتها بين أسنانها تشفياً وانتقاماً .

بعد سبع ساعات من الإنتظار القاتل والعذاب والتعب والغضب والقيظ اللافح ، حملتني سيارة تكسي مع ستة مسافرين آخرين لتعبر بنا جسر اللنبي إلى الضفة الشرقية .

لم يتبادل المسافرون الأحاديث الأليفة والنوادر التي كثيراً ما يتبادلونها حين يلتقون في سيارة مسافرة أو في حافلة ركاب . ان الأمور الكثيبة التي أخذت مجراها حول شباك التصاريح تركت كلا منا وحيداً مع نفسه ، ملقياً على العالم الخارجي أمامه نظرات فيها من الحزن والألم وعلامات الإجهاد ما يعكس على مرايا الوجوه خضماً صاخب الأمواج لعالم باطني مضطرب في الأعماق .

استراحت نفسي قليلاً إلى الجو الذي عرّش فيه الصمت وحمدت بيني وبين نفسي لرفاق السفر خلودهم إلى السكون وغياب كل منهم في عالمه الخاص . الطريق ينطوي بسرعة كبيرة ، ينطوي جزءاً

فجزءاً خلف شباك السيارة على يميني ، وأنا أنظر ولا أرى ، فقد بدأت تعتريني تلك الحالة الغريبة التي تصاحب رغبتي في كتابة الشعر . حين وصلت بيت شقيقتي حنان في عمان كانت قصيدتي «آهات أمام شباك التصاريح» قد بدأت تتخذ في ذهني شكلاً هلامياً غير واضح المعالم ، استحوذ على عقلي الباطن لعدة أيام في نومي وفي يقظتي ، إلى أن استوى في الأخير قصيدة متكاملة التكوين :

وقفتي بالجسر استجدي العبور

آه ، استجدي العبور

اختناقي ، نفسي المقطوع محمول على وهج الظهيرة

سبع ساعات انتظار

ما الذي قصّ جناح الوقت ، من كسّح أقدام الظهيرة ؟

يجلد القيظ جبيني

عرقي يسقط ملحاً في جفوني

آه ، آلاف العيون

علّقها اللهفة الحرّى مرايا ألمٌ

فوق شباك التصاريح ، عناوين انتظار واصطبار

آه ، نستجدي العبور

ويدوي صوت جندي هجين

لطمة تهوي على وجه الزحام :

(عرب ... فوضى .. كلاب ..

ارجعوا لا تقربوا الحاجز ، عودوا يا كلاب !)

ويد تصفق شباك التصاريح ، تسدّ الدرب في وجه الزحام

آه ، انسانيتي تنزف ، قلبي يقطر المر ، دمي سم ونار

« عرب .. فوضى .. كلاب .. »

آه ! وامعتصماه !

آه يا ثار العشيرة

كل ما أملكه اليوم انتظار

ما الذي قصّ جناح الوقت ، من كسّح أقدام الظهيرة ؟!

يجلد القيظ جبيني

عرقي يسقط ملحاً في جفوني

آه جرحي !

مرغ الجلاد جرحي في الرغام

* * *

ليت للبراق عيناً

آه يا ذل الاسار

حنظلاً صرت ، مذاقي قاتل ، حقدي رهيبٌ

موغلٌ حتى القرار

صخرة قلبي ، وكبريت وفوّارة نار

ألف « هند » تحت جلدي

جوع حقدي

فاغر فاه ، سوى أكبادهم لا

يشبع الجوع الذي استوطن جلدي

آه ! يا حقدي الرهيب المستثار

قتلوا الحب بأعماقي ، أحالوا

في عروقي الدم غسلينا وقار !

* * *

(١٠)

(شاعرة في القرن العشرين من أكلة لحوم البشر) تحت هذا العنوان المثير – وكما نعرف فإن الصحافة تفتعل دائما الاثارة وتبدعها لجذب القراء – تحدثت إحدى الصحف اليهودية عن قصيدتي (آهات أمام شباك التصاريح) وعلّقت بسخرية مُرة على السطرين :

جوع حقدي فاغر فاه سوى أكبادهم لا

يشبع الجوع الذي استوطن جلدي

وبالطبع لم تذكر البيت الذي تلا هذين البيتين وهو :

قتلوا الحب بأعماقي أحالوا في عروقي الدم غسلينا وقار

ترى من الذي قتل الحب بأعماقي ؟ أليسوا هم جنودهم بما يضمرونه من حقد موروث على العرب عموماً ؟

انتشر خبر القصيدة في إسرائيل وأصبحت قصيدة سيئة السمعة إلى حد بعيد تلقيت بعد ذلك رسائل بلا تواقيع وكلها تتضمن معنى التهديد ، بينها رسالة من السيدة تكفا أغاسي تطفح بالسخرية بي وبالتهكم على أصلي وفصلي وعائلتي ذات الدم الأزرق على حد تعبيرها. هذه الرسالة المثقلة بايراد أحداث تاريخية قديمة ونزاعات عربية، ناهيك عن تركيزها على كوني من سلالة هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بن حرب وأم معاوية بن أبي سفيان « لائكة الأكباد » إلى أن تقول : فبخ بخ لم تعيي أصلك الخ . هذه الرسالة قالت صاحبتها عن نفسها أنها ربة منزل غير أن أخاً عربياً يعيش في إسرائيل أكد لي أن رسالة كهذه لم يكتبها إلا ذلك الاستاذ العراقي المتخصص في التاريخ في إحدى جامعات إسرائيل وهو معروف بشدة كراهيته للعرب .

ولعل أكبر نكتة تتصل بالقصيدة رديئة السمعة هي كما قيل لي : «إن بعض اليهود حين كان يدخل مطعما في إسرائيل كان يطلب قائمة طعام فدوى طوقان (يعني صحن كبدة) !! وقد جاءني بعض الصحفيين اليهود يسألونني عن بواعث هذه « الهمجية » فأجبتهم أنني في الحقيقة استمرت هذا المعنى من قصيدة لشاعرهم القومي الصهيوني مناحيم بيالك عنوانها « أناشيد باركوخبا » حين قال بيالك على لسان باركوخبا المحاصر في تلك القلعة :

هذا ليس بشيء سوى أنكم مرات عديدة أوجعتمونا

وحولتمونا إلى حيوانات مفترسة

وبغضب وحشي سوف نشرب دماءكم بدون رحمة

حين يقوم كل الشعب ويطلب الإنتقام

لكن ، ومن المؤسف ، أن أحداً من أولئك الصحفيين لم يجرؤ على نشر هذه الحقيقة التي أعلنتها . إلى أن عمل حاكم نابلس العسكري آنذاك على ترتيب لقاء بين رئيسة جريدة دافار العبرية السيدة زيمير وبيني ، والتي بادرتني قائلة : كيف شهيتك اليوم لأكباد جنودنا الإسرائيليين ؟ أبديت لها سروري بمبادرتها بهذا السؤال ، وأوضحت لها من أين استعرت ذلك المعنى ، كما أطلعتها على ترجمة انكليزية للنص الأصلي . هنا وعدتني السيدة زيمير بالرجوع إلى النص العبري في ديوان بيالك ، فإذا وجدت القصيدة بهذا المعنى فسوف تكتب مقالاً بهذا الصدد . وكانت صادقة ، إذ وافاني الحاكم العسكري بعد بضعة أسابيع بمجلة عبرية تتضمن مقالاً منصفاً وجميلاً عن الموضوع مع ترجمة انكليزية للنص الأصلي .

في جريدة « الاتحاد » الصادرة بتاريخ ١٦/٨/١٩٧٤ نشر شاعرنا الفلسطيني الكبير سميح القاسم كلمة بعنوان « التفوق الكانيبالي » قال فيها : حتى اليوم سمعنا عن عدة مجالات للتفوق الاسرائيلي علينا ، تفوق تكنولوجي ، تفوق عسكري ، تفوق زراعي ، تفوق استيطاني ،

تفوق صناعي ، تفوق اجتماعي ، وتفوق تفوقي ..

اليوم وبعد مطالعة الصحف الإسرائيلية الصادرة في الآونة الآخيرة نستطيع أن نضيف تفوقاً آخر : التفوق الكانيبالي !

كانيبال – كلمة فرنجية تعني « أكل لحوم البشر » . أما من أين جاء هذا التفوق الكانيبالي فاليكم البيان التالي :

مرة من المرات نشرت فدوى طوقان قصيدة فيها شيء من الغضب الفلسطيني . وكعادة الشعراء الذين (يتبعهم الغاوون) فقد لجأت فدوى إلى حكاية تاريخية عن هند بنت عتبة التي نهشت كبد حمزة حتى تشفي منه غليلها .

قامت قيامة جرائد إسرائيل ... وحتى الذين كان الدم العربي لا يزال أخضر على أصابعهم راحوا يكيلون التنديد بالقنطار وأثاروا شفقتنا الساذجة لشدة ما عانوه من تقزز وأسف . هكذا اذن ، ها هم العرب الكانيباليون على حقيقتهم ، من خلال قصيدة فدوى .

وكان ما كان .وقبل أيام لم تقم قيامة جرائد اسرائيل ، لكنها كتبت عن طلاب جامعيين إسرائيليين متفوقين ، في الجامعة العبرية – كلية الطب – تراهنوا على أكل دماغ إنسان ميت فاز أحدهم في الرهان..

حين أكلنا كبداً في قصيدة لعنوا آباءنا وأجدادنا . وكانت أصغر تهمة كالوها لنا تهمة الكانيبالية !

أما حين يأكل أحدهم دماغ إنسان ميت بأحدث وسائل التشريح الطبي ، فالمسألة في إطار الروح الرياضية – سبورت !

وستكون طرفةً رائعة أن ندعو إلى عقد اوليمبيادا دولية كانيبالية ! مهما يكن من أمر ، علينا أن نعترف بالتفوق الجديد ، التفوق الكانيباليي!

(١١)

بالرغم من كل شيء

بقلم

هنهزيميز

الآن ، وقد أخذ سكان البلاد يتسترون على رجال المقاومة ، الآن والإرهاب آخذ في الظهور في ضوء أكثر حقيقية بين السكان العرب ، والحالة تبدو على مقربة من الحافة .

الآن ، وقد بدأ كثير من الإسرائيليين يشكّون فيما إذا كان لمواجهتنا الليبرالية تجاه هؤلاء السكان أي مبرر ، وحيث كل ما يبدو منا لأولئك السكان هو كوننا غزاة ومحتلين . الآن ، خاصة الآن ، على المرء أن يحول دون قطع القنوات القليلة للحوار حتى لو كان هذا الحوار غير مستساغ . على المرء أن يمنع كلا الجانبين من الاختفاء خلف

حواجز ، مع الشعور بأنه لا جدوى ولا فائدة من المحادثة والنقاش ومن محاولات التفاهم والاقناع . حتى لو لم يكن في ذلك كبير جدوى سياسياً ، فإن هذه المحاولات للتفاهم تشكل جسراً إنسانياً يعلو فوق أمواج الكراهية ، جسراً ضيقاً يصعب السير عليه بين الحواجز السياسية، ومع ذلك فإنها الفرصة الوحيدة لدينا في تيار من المرارة المتبادلة لنمضي نحو مستقبل يتم فيه التعايش .

من أجل ذلك أميل إلى التحدث مع هؤلاء القوم الذين ينظرون إليّ كعدوة لهم ويصفونني بالغازية أو المتعدية ، كما يتهمونني بجرائم اخلاقية ، يرافق اتهامهم ذاك نصف ابتسامة اعتذارية تعني أن الإتهام ليس شخصياً .

ليس لدي أية أوهام بانني سأكون قادرة على اقناعهم ، وليس لديهم امكانية لإقناعي ، لكنني أجرب أن أفهمهم وأن اجعلهم يفهمونني، وبالرغم من الصعوبة واليأس والإحباط فإن هذه الأحاديث ممتعة .

في أحد هذه الأحاديث التي تدور وتدور حول الموضوع نفسه كما لو كان هذا الموضوع خارجاً من فلم « راشومان » – فيلم ياباني حول الحقيقة – كان لي فرصة اللقاء بفدوى طوقان الشاعرة الوطنية من نابلس والمعروفة لدى كل من العرب واليهود .

إنها دمثة ، ذات مسلك حضاري ، تُعنى بمظهرها ، عصرية ، وهادئة جداً ، على الأقل في مظهرها الخارجي .

ربما لأننا لم نجرب حتى أن نتجادل ، انتهينا إلى تفاهم ودي حول افتقارنا إلى التفاهم . نوع من التخلي سلفاً عن أية محاولة للاقتناع بتفاهم مشترك حول كوننا منقسمتين في مشاعرنا ، في حماساتنا ، في اهتماماتنا وقراراتنا ، وان ما نشترك فيه هو قدرتنا على اللقاء ككائنين بشريين رغم كل شيء .

في هذا الجو الهادئ ، تساءلت بيني وبين نفسي عما إذا كان جديراً بي أن أعلق على شهيتها الشعرية للكبد اليهودية . قررت أن أفعل مع ابتسامة تمنحها الفرصة لتتجنب الموضوع . ولدهشتي الكبرى كانت مسرورة لإثارة الموضوع . واستطعت أن أرى أنها معنية بما نحمل من فكرة عنها بشأن هذه المسألة .

قالت بلهجة فيها بعض الشكوى : « جاءني صحفيون إسرائيليون ووجهوا إليّ سؤالاً بهذا المعنى ، لكن لم يهتم أحد منهم بنشر جوابي » . وبدأت تحدثني عن تجربة شخصية كئيبة كانت قد مرت بها خلال عبورها الجسر إلى الضفة الشرقية . تجربة اشعرتها بالمهانة عند منطقة التفتيش ، ووفقاً لهذا الشعور كتبت ابياتها المشهورة المستوحاة كما قالت من الشاعر الصهيوني مناحيم بيالك .

- عفواً ؟

- إن لها ابن اخ يعرف العبرية ، ترجم لها مقطعاً من قصائد بيالك وقد وجدت فيها صوراً قوية ناسبت مزاجها القاتم . واخرجت من حقيبة يدها مفكرة صغيرة برتقالية اللون ، وقرأت بالانكليزية ستة أسطر صارخة تطلب الإنتقام .

قالت : ها انت ترين . هذا ما جاء به بيالك في أناشيده عن «باركوخبا» ،.إنه يطلب بقسوة وحشية أن يشرب دم الأعداء دون رحمة . إن الشاعر حين يصرح لا يستطيع أن يدهن لسانه بالعسل . ان عليه ان يعبر بتطرف عن كل ما يحس به في داخله .

قولي لي ، لماذا يحق لشاعركم القومي أن يطالب بشرب دم الأعداء ، بينما يصدمكم قولي أنني أودّ لو آكل كبد جندي إسرائيلي شتمني وأهانني ؟ لماذا تترجمون قولي ترجمة حرفية ولا تأخذون قول بيالك بحرفيته ؟ لماذا تسألونني وتتجاهلون جوابي ؟ لماذا تتهمونني ولا تتركونني أرد الإتهام ؟

وعدتها بأنني سأبحث عن قصيدة بيالك ، فإذا وجدتها فسوف أنشر توضيحاً للأمر ، وها أنا أفي بوعدي الآن ، خاصة الآن .

(وتذكر أبيات بيالك الشعرية) ثم تتم حديثها قائلة :

قد تقول أيها القارئ أن خرافة ما لا تشبه معناها . قد تقول أن صرخة بيالك كانت موجهة ضد حاكم قاس وأن الظروف الحاضرة مختلفة تماماً إن لم تكن النقيض بالكامل ، لكن هذا لا يغيّر الحقيقة التي تقول أن من حق الشاعرة الدفاع عن نفسها وأن من حقها أن توضح أن كرهها ليس رهيباً إلى هذا الحد ، وأنها معنية بأن نعرف ذلك .

(١٢)

عام ونصف ، يمر على انتقالي الى بيتي الجديد في سفح جبل جرزيم ، عام ونصف ويغطي ليل الاحتلال مدينتنا الجميلة ، ويشلنا الذهول وقد شرعت الكوابيس تملأ حياتنا في النوم واليقظة .

لم تطل فترة الذهول ، وبدأت مرحلة الرفض والتحدي والمقاومة، ليبدأ معها عنف الغاصب المحتل وممارساته القمعية ضد الشعب، وتعودت ابواب البيوت طرقات الجند ، واقتحام اصحاب الخوذات الحربية للباحات والغرف في عمليات التفتيش عن السلاح ورجال المقاومة .

بيت جارتي كان من اكثر بيوت الجيرة استهدافاً للاقتحام والتفتيش ، وادمنت جارتي معاناتها اليومية مع المحققين . كان ذنبها وخطيئتها الكبرى انها اعطت الوطن خمسة شباب وصبية . كلهم من الرافضين لواقع الاحتلال ، فلسطينيون احرار ، يقارعون الاحتلال ويقارعهم.

في صبيحة كل غارة تفتيشية على بيتها ، كانت نسوة الجيرة تهرع اليها للاطمئنان وللتعبير عن الشعور المشترك . لايزال يقبع في مخزون الذاكرة ذلك الصباح الذي ذهبنا فيه اليها ، وقد انتزع الجنود من حضنها في الليل اربعة شباب دفعة واحدة ، ليغلقوا عليهم ابواب الزنازين . لقد ملأ نفسي جمالاً وتجلالاً ان اراها تقف بيننا في ذلك الصباح متحصنة بكبرياء الصبر ، تحدث عما جرى شامخة مرفوعة الرأس ، لا تجرح عينيها دمعة . . فيا لعظمة الأم الفلسطينية ! من هنا تعرفت على والدة الشاعر « علي الخليلي ». الذي غاب عني صوته الشعري لعدة سنوات بسبب غيابي في انكلترا وقطر .

سألتها : اين « علي » اليوم ؟ قالت : علي في المنفى .. وجاء يوم كنت اقلّب فيه صفحات مجلة « الأدب » ذات المستوى الأدبي الرفيع . قرأت وابتهجت ، فها هي نبوءتي تتحقق ، وها هو الشاعر الواعد بالامس يدخل المعبد بثقة واقتدار . واستمرت قصائده تصل اليّ من وراء المنافي البعيدة عبر الصحافة الادبية الممتازة كلما ذهبت الى عمان ، فقد كان الفكر العربي قد انقطع عنا منذ بداية الاحتلال ، في الضفة والقطاع.

اشهد ، لقد هزتني غبطة جميلة حين قرأت ذات يوم قصيدة للشاعر « علي الخليلي » بعنوان « جدلية الوطن » وهو العنوان الذي حملته فيما بعد مجموعته الشعرية الثانية الصادرة عام ١٩٧٠ عن دار

الأداب في بيروت .

انها لضرورة قصوى في هذا الزمن الشائه ، ان يتحصن الانسان العربي بوعي سياسيّ وعقائدي يحميه من الضياع ، وعيّ تتأكد فيه هويته ويتكثف شعوره بالانتماء ، ومن المؤكد انّ اجدر من يتحصن بهذا الوعي السياسيّ العقائدي هم اصحاب القلم الذين ينطلقون في اداء دورهم النضالي من جبهة الفن والفكر والشعر . فلابد لهؤلاء من اتخاذ موقف من الحياة ، وموقع ينطلق منه سلوكهم وافكارهم واعمالهم الادبية . فمثل هذا الموقع ومثل هذا الموقف يضيئان لهم الطريق ويمنحانهم عناصر رؤياهم ، ومن خلالهما تنبثق مضامين انجازاتهم الفكرية والفنية والأدبية .

* * *

(١٣)

حين طرحت عليَّ السيدة الصحفية الإسرائيلية سؤالها قائلة : هل تظنين لو وصل العرب – لا قدر الله – إلى تل أبيب كانوا يعاملوننا بنفس الطريقة التي يعاملكم بها جنودنا في نابلس ؟ هنا غمرتني الدهشة ، ولم يستوعب شعوري هذا السؤال لفرط غرابته . يا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ! أتراها ليست على علم بما يحدث لنا تحت الإحتلال ؟ أتراها تجهل من القاتل ومن الضحية ؟ ألم يأتها نبأ الإعتقالات الجماعية وفرض العقوبات الجماعية على السكان المدنيين العُزل في جميع مدننا وقرانا ؟

ألم يأتها نبأ الوف السجناء الذين يعيشون في السجون الإسرائيلية في أقسى ظروف تمارس فيها ضدهم جميع أساليب التعذيب بما فيها الأجهزة المتطورة الحديثة في التعذيب لتحطيمهم معنوياً وجسدياً ؟

ألم يأتها نبأ مصادرة الأراضي وهدم البيوت وعمليات النفي

والإبعاد وإقامة المستوطنات ؟

ألم يأتها نبأ سياسة الحكومة الإسرائيلية الموجهة للاستيلاء على المصادر الطبيعية كمصادر المياه ، إلى درجة أنه نتيجة لحفر آبار كثيرة لخدمة أهدافهم الصهيونية جفت بعض موارد المياه الطبيعية التي يعيش عليها المواطنون الفلسطينيون كما حدث في العوجا والعين البيضاء ؟

ألم يأتها نبأ السياسة التعليمية التي عمدت إليها السلطات الإسرائيلية ، سياسة التجهيل العلمي والحضاري ، إذ منعت تدريس أو تداول الكتب التاريخية التي تمتّ إلى التاريخ العربي والفلسطيني بصلة، وأصبح اسم فلسطين من المحرمات والجرائم الأمنية ، حيث حرم تداول إسم فلسطين أو معرفة حقائقه في أي مخطوط أو كتاب ، هذا عدا عن مصادرة مئات الكتب التاريخية والجغرافية والدينية والأدبية المحظور وجودها أو إنتشارها في المكتبات الخاصة والعامة ؟

ألم يأتها نبأ الأسر الفلسطينية الممزقة ، حيث يعيش رب الأسرة هنا وأولاده هناك وراء الحدود ، الزوجة بعيدة عن زوجها والأم بعيدة عن أبنائها والأخ بعيد عن أخيه .

كنت أعرف ، بل كنت على يقين من أنها كسيدة سياسية محترفة تعرف كل ذلك وأكثر منه . لكنني لم أشأ أن أدخل معها في مجال عراكي أو استفزازي ، اكتفيت بالقول بهدوء :

جنودكم يكرهوننا أيضاً ، وحدثتها عن الجندي الإسرائيلي الذي هرع يوم احتلالهم لنابلس ، هرع إلى بيت أحد الجيران يطلب جهاز

راديو ترانزستور وحين حصل عليه مضى يدير إبرة الجهاز بعجلة هنا وهناك ،ولعله كان متلهفاً لسماع نشرة أخبار عبرية ، لكن جميع المحطات كانت تبث باللغة العربية ، فرمى بالجهاز بعيداً بعصبية شديدة وهو يصرخ : عربي عربي عربي ، كم أكره العرب . ا كم أكرههم ا

من الطبيعي أن حواراً يدور بين إنسانين إحداهما ينتمي إلى الجانب الغازي المسيطر ، والمنطوي على ايدلوجية صهيونية غيبية استمدها من حكاية الوعد الإلهي ، والثاني ينتمي إلى الجانب المهزوم المكابد تحت الإحتلال العسكري ، من الطبيعي أن يظل هذا الحوار يدور في حلقة مفرغة ، الأول يتحدث عن الأمن ويظل يلبس حلمه التوسعي واستعماره الاستيطاني ثوب الدفاع عن النفس والثاني يتحدث بحرقة عن حقه المشروع في مقاومة الإحتلال والدفاع عن أرضه التي ورثها عن آبائه وأجداده . كما من حقه التمسك بهذه الأرض وبقائه عليها ، ناهيك عن أن الأعمال التي يقوم بها المقاومون للإحتلال تعكس واقعهم المشرد وضميرهم المتعب من الإهمال والتشريد الذي يلاقونه .

من هنا يستحيل اللقاء الفكري بين هذين الإنسانين ما دام الأول يردد باستمرار اغنيته الشائعة : « والدبابات ستحضر لنا السلام » فيما الثاني يردد :

فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردى

في الحقيقة لم يشب حوارنا أي توتر أو تشنّج ، ولعل مرد ذلك يعود كما أشرت من قبل ، إلى كوني افتقر إلى الطبيعة العراكية

والاستفزازية . مما يجعل حواري مع الآخر يجري بسهولة ويسر كجريان الماء .

وحين تساءلت السيدة الصحفية عما إذا كنت اعتقد -كشاعرة- أن الشعر والروح التي تمليه هما أقوى من طائرة الميراج وأقوى من الدبابة ؟ قلت : يبدو أن ذلك كذلك بطريقة أو بأخرى من وجهة النظر الإسرائيلية ، بدليل أن السلطات الحاكمة تمنع قراءاتي الشعرية وانتشارها بين الجماهير ، والرقابة العسكرية تمنع الصحف من نشر مثل هذه القصائد التي تتضمن معنى رفض الإحتلال ومقاومته . كما أن دواويني محظور تداولها أو بيعها في المكتبات . حقاً ، إن للشعر قوته المعنوية ، ولا جدال في قوة طائرة الميراج والدبابة ، غير أن حقيقة أن الشعر يمتلك قوة معنوية ومحرّضة تظل قائمة ، انها تزعج المحتل لأنه يدرك مدى تأثيرها في الجماهير . ولا ننسى أن قصائد شعراء المقاومة إبان الإحتلال النازي لفرنسا كانت توزع بين الجماهير الفرنسية بطريقة سرية وكأنها قنابل ومتفجرات ...

هنا أود أن أذكر ما رواه لي أحد العمال إذ قال ان له أخاً في الجيش الأردني ، كان يصغي ذات يوم مع فرقته إلى الإذاعة الأردنية فيما كنت أقرأ قصيدتي (لن أبكي) وقد بلغ من تأثر الجنود بالقصيدة أنهم بعد انتهاء البرنامج المذاع ، تناولوا واحداً واحداً بالتناوب القرآن الكريم، مقسمين على أن يستمروا في القتال حتى آخر قطرة من دمائهم ، وكانوا في حالة تأثر عميق .

وعودة إلى حالة العداء والكراهية ، ذكرت السيدة الصحفية أننا نُغذي في أطفالنا نزعة الكراهية لليهود . وهنا أود أن أشير إلى مقال قرأته فيما بعد كتبته السيدة تسبورة شاروني . وكان مقالاً عادلاً وعقلانياً يفيض بروح انسانية عالية تقول الكاتبة الإسرائيلية تحت عنوان (كتب الأطفال والتربية بروح الشوفينية والكراهية) : من المؤسف أن تظهر في السنوات الأخيرة كتب أطفال جديدة كل غايتها التربية بروح التعالي القومي وكراهية الشعوب المجاورة . ثم تسرد في مقالها اسماء كتب بعينها مع اسماء مؤلفيها ، وتقف عند قول أحدهم : العرب مخادعون ، إنهم عدو قاس ، وانا بنفسي انظر إلى العرب نظرة الكراهية ، وددت لو أعمل شيئاً أن أقبض على هذا العربي ، وببساطة ، أن أخنقه .

أسلوب مستهجن يهدف إلى أن تكون البغضاء أساس التعامل الإسرائيلي العربي هذا وتورد السيدة شاروني الكثير من الاقتباس وابراز الأمثلة . وتنهي مقالها بقولها : من الضروري أن نؤكد على الخطر الكامن في هذه الكتب . وهو تكوين الجيل الناشئ وشخصيته تكوينا مشوّهاً ، إلى أن تقول : وتغض وزارة المعارف الطرف ، ولا تراقب كتب الأطفال ولا تنتقدها ، ولعل كتب الأطفال هي المادة الوحيدة التي لا رقابة عليها . وانه لمن الواجب ان ترتفع أصوات الآباء والمعلمين ووزارة المعارف كي يتوقف حالاً توزيع هذا النوع من الكتب واننا بحاجة إلى كتب تربي على قيم السلام والتفاهم والصداقة بين إسرائيل وجاراتها وليس العكس . كفانا كراهية وحرباً ، ولزام علينا أن نربي

بروح السلام والتفاهم . » .

تمنيت لو قرأت معي السيدة الصحفية هذه الشهادة ، شهادة شاهد من أهلها .

* * *

هذا يذكرني بما حدثني به صديق يهودي رائع عن حفيده المراهق الطالب في إحدى مدارس تل أبيب ، قال : جرى توزيع استبيان على الطلاب احتوى على ثلاثة اسئلة : هل تحب العرب ؟ هل تكره العرب ؟ هل تعتقد أن التعايش معهم ممكن ؟ من المؤسف أن إجابات الطلاب جاءت كلها سلبية باستثناء جواب الحفيد الذي قال : لا أكره العرب واستطيع أن أتعايش معهم .

ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا الطالب منبوذاً من المدير والمعلمين والطلاب وظل يعاني من حالة إغتراب مؤلمة في مدرسته وبين زملائه .

إن ما ذكرته عن استحالة التعايش العربي الإسرائيلي في نظر الإسرائيليين يعيد إلى ذاكرتي قصة التقاء موشه دايان بجمهوره في «هيكل الثقافة » بتل أبيب واعتراض ذلك الجمهور على فكرته التي عرضها في سياق حديثه اليهم حين قال : لقد أحزنني رد الجمهور اليهودي على لقائي بالشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان . قرأت هذا النقد : كيف تقرر أنت يا موشه دايان ، يا وزير الدفاع ، الجلوس مع فدوى طوقان ثم تقترح علينا دعوتها إلى هيكل الثقافة في تل أبيب لكي نستمع إلى أشعارها ؟ ويرد دايان على هذا بالإعتراف التالي : لست أنا

الذي جعل هذه الشاعرة شاعرة ، ولست أنا الذي استكتبها قصائدها القومية . ولكن بسبب وجود جمهور فلسطيني له شعراؤه فإني اقترح على الجمهور الإسرائيلي الإصغاء إلى الشعراء الذين يحبهم الجمهور العربي لكي نفهمهم .

(١٤)

(١)

لو كنت قائدا لجيشنا الاسطوري

جيشنا العظيم

لو قفت عند أبواب المدينة المحاصرة المخنوقة

مدينةالفلسطينيين

لزرعت الموت والدمار

في كل المنازل والشوارع

في كل المساجد والكنائس

اليوم ، في حملة سلامة الجليل

سنسفك دماء كثيرة

ونقتل الاطفال والنساء والشيوخ

" الشاعر ابشلوم كور "

(٢)

في حديثي مع ابريت
توصلنا الى نتيجة
اننا يجب ان نقاتل
ان نقتل
كل الذين يبحثون عن وطن لهم
يجب ان نقتل
حتى يكون لنا وطن
من النهر الى النهر

" ابشلوم كور "

لعل من اشد الصهيونيين تطرفا « د. الدادشيب » أحد زعماء الدعوة الى ارض اسرائيل الكاملة يقول : « ان العرب ليسوا هنا من ناحية الماضي ومن ناحية المستقبل . انهم مؤقتون هنا ، وفي شرق الاردن ايضا . وبعد عشرين سنة اخرى سيرحلون بالقوة او من تلقاء انفسهم فكما انه سيبقى قليل من اليهود في العالم كذلك لا يبقى الا القليل من العرب هنا . وهذا هو كل شيء . ان من يدعو الى هجرة اليهود من المهاجر لكي يعودوا الى صهيون ، من حقه ومن المحتم عليه ان يدعو الى رحيل العرب بجماهيرهم من ارض اسرائيل » .

التقيت باسرائيليين ينضحون كراهية لنا وحقدا علينا بادرتني امرأة صهيونية بقولها في حدة وشراسة : لن ندعكم ترفعون رؤوسكم ابدا . كل عشر سنوات لابد من ضربة نهوي بها على رؤوسكم».

حاولت بيني وبين نفسي وزن هذه المرأة بمقياس الحضارة ، حاولت تطبيق مقاييس التحضر المألوفة على سلوك تلك المرأة تجاهي ، ولكني ، لم أجد ذلك ممكناً .

وفي حرب اكتوبر ١٩٧٣ وددت لو تمكنت من لقائها لاقدم لها تحياتي ! .

المحزن ان مناحيم بيغن كان قد زرع في وجدان الشعب اليهودي وفي ضميره فكرته الرهيبة حين قال : (لن يكون هناك سلام . وستستمر الحرب بيننا وبين العرب حتى لو وقعوا معنا على معاهدة صلح) .. ومن هنا لاعجب ولا استغراب حين ينطلق صوت الشاعر افرايم تسيدون بقوة هستيرية في قصيدته الرافضة كل الرفض لاي موقف تصالحي مع العرب :

لو تخلّى الفدائيون عن اسلحتهم وعقيدتهم
وارسلوا بطاقات التهنئة لكل بيت يهودي
حتى لو شاركتنا المنظمة في بناء المستوطنات للمهاجرين الجدد

حتى لو اعلنوا امام الملأ بان الضفة الغربية هي ارض يهودية

حتى لو قامت « فتح » بنسج قبعات الصوف ليهود اسرائيل

حتى لو استقبل اهالي الضفة جماعات « غوش امونيم » بالاغاني والزغاريد

حتى لو التزم ياسر عرفات امام الملأ بأننا الذئب وهم الغنم

وحتى لو اعترفوا بالدولة اليهودية

وقدموا لنا كل اموال التبرعات التي يتلقونها

وحتى لو نقلوا اللاجئين الى القطب الشمالي

ورفعوا رايات الهزيمة اياما وليالي

وحتى لو تحولت سيوفهم الى اقلام ومساطر

فلن نجالسهم ابدا

ولن نحاور ؟

هل تعني هذه الروح المتصلبة في القصيدة ، وهي روح اتمنى ان لا تكون منتشرة بين جماهيرهم ، هل تعني ان التعايش اليهودي العربي مستحيل ، ان لم يكن خرافة ؟ من الواضح ومن البديهي انه لا سبيل الى ايجاد بديل موضوعي للأطماع الاستيطانية وللحلم التوسعي لدى الطرف الاخر المتمسك بشعار الصهيونية والتي يعرّفها « جابوتنسكي » بقوله : « انها التجمع والاقتحام ، او الاستيطان والتوسع » بمعنى اخر هي الحرب والعدوان ، والقصيدة آنفة الذكر تتضمن معنى ضرورة استمرار

الصراع حتى بلوغ الهدف : استكمال الاستيطان والتوسع وتفريغ الأرض من اهلها الفسطينيين وتحقيق فكرة ارض اسرائيل التوراتية . هذه الفكرة الميتافيزيقية التي يعتنقها الصهيوني المعاصر المتقمص لشخصية اليهودي في التوراة الذي « يدمر ويحرق وينهب ويحب السيطرة ويشعر بالتفوق والاصطفاء » .

في هذا السياق اذكر زيارة قام بها لبيتي الكاتب البريطاني برايس ديفيد جونز اذ طرح عليّ سؤالاً عن قصيدتي سيئة السمعة .. ، فاطلعته على مقال السيدة « زيمير » وعلى ترجمة لقصيدة بيالك معلنة اهتمامي بالموضوع . وحين كتب كتابه : « وجه الهزيمة » The Face of Defeat الذي تحدث فيه عن زيارته للضفة الغربية والقطاع ، اتى على ذكر لقائنا في نابلس ، وتناول حكاية القصيدة مفلسفاً قضية الكراهية بقوله : لقد كان بديهيا كره العرب لليهود ، كل صاحب منصب اداري في اسرائيل يسلّم بصحة هذا حين ينطق الكليشيه المفضلة لديه : « انه لا يتوقع ان يحبه العرب » . تقول فدوى انها لم تستطع ان ترغم نفسها على النزول الى البلدة حتى لا ترى اعلام الاستسلام البيضاء والجند المحتلين – وهنا امتلأت عيناها بالدمع – ان في قصيدة لها عنوانها (الطاعون) تسويغاً لمشاعرها . وحين رتب دايان مع رئيس بلدية نابلس لقاء بها في منزله في احدى ضواحي تل ابيب كان اول ما قاله لها : انت تكرهيننا . حقاً الم يكونوا مكروهين ؟ ثم الم يكن من حقها الاعتقاد بان الفدائيين اكبر من

الحياة ؟ يقول دايان : لكن ما نتيجة ذلك ؟ لاجواب هناك في منزل فدوى ولا في منزل دايان .

ثم يقول الكاتب : حين قرأت الترجمة الانكليزية لقصيدة الشاعر العبري مناحيم يالك والتي استعارت منها فدوى صورة اكل اكباد الجنود اليهود لم اشك في ان هناك من يعتبر ان في قصيدة يالك روحاً تغذي الكراهية في الذهن . غير ان ذلك ليس اكثر من احتجاج صادر عن السجن . ان الكراهية – يقول الكاتب – يجب ان تجد لها مخرجاً، يجب ان تكون على قدم المساواة مع الصوت الذي يسأل : ما الفائدة ؟ بلا مخرج تظل الكراهية عاجزة . انها تتقطر داخل النفس لتصبح كرها لهذه النفس ، او هي تنمو لتصبح شكلا من اشكال حب الاستطلاع فيما يتصل بالعدو الذي بمقدوره ان يبعث فينا مثل هذه المشاعر ، وبالتالي تولّد الشفقة على الذات والاعجاب بذلك العدو ، بل حتى قد تولّد الحب له .

من الواضح هنا ان الكاتب البريطاني اتكأ على نظر علماء النفس للحب حين قالوا : « ما الحب الا الكراهية مقلوبة . او هو ردّ على هذه الكراهية وتصفية لها » . غير انني لا استطيع استيعاب هذا التحليل الذي لجأ اليه الكاتب لمسألة كراهيتي للغازي الذي اغتصب وطني ووقف مني موقف السيد من العبد .

(١٥)

يسرني ويسعدني انني اتمتع بصداقتي ومحبتي لعدد من اليهود الذين عرفتهم عن قرب ، أولئك الذين لمست دفء قلوبهم وصدق انسانيتهم وبعدهم في تعاملهم مع العرب عن روح التعالي القومي . واذا قلت انني وانا في صحبة صديقة او صديق يهودي لا اشعر اطلاقا انني اجلس الى انسان ينتمي الى دولة عدوانية اغتصبت ارض آبائي واجدادي ، فانني أؤكد هنا ان هذا الاحساس لا ينبع عن سذاجة او بساطة . ولكن ينطلق من شعور انساني محض . انني على وعي عميق بخطورة وضعنا الفلسطيني امام الاهداف الصهيونية التوسعية . ولكن كيف القي المسؤولية على اصدقاء هم ضد التطرف الصهيوني وهم حريصون على صداقة العرب وبناء جسور التفاهم و المحبة بين الشعبين رغما عن القادة الصهيونيين الذين يعملون على ان يتباعد الشعبان وان تهدم الجسور بينهما ان اصدقائي اولئك من يهود اسرائيل انسانيون ممتازون ، يبذلون جهودا صادقة من اجل تعزيز التفاهم المتبادل ،

والتواصل الانساني ، ويعتقدون بضرورة التعايش مع الفلسطينيين ولا ينكرون ان لنا حقا في الحياة في ارض الوطن .

لم التق بـ (يهودي منوهن) – من اعظم عازفي الكمان في العالم – ان ذلك الفنان الانسان الذي يتمتع بوزن عالمي كبير ، من اعظم المدافعين عن الحق الفلسطيني وهو لا يدافع عنهم بسبب عداء لاسرائيل او خلاف مع اليهود ولكنه يهودي يقول كلمة الحق .

كما انني لم التق بالمغنية الشابة الاسرائيلية « سي هايمان » لكني اكبرتها وقدرتها واحببتها حين اخترقت طريقها الفنية بالاغنية السياسية المفعمة بالاحتجاج . وظلت تغني لقضية السلام والنضال ضد الحرب . قالت : لم استطع الكذب على نفسي ، انا لا استطيع الغناء عن الربيع والشمس الساطعة بينما تجري حولي أمور مغايرة وصعبة . ارادوني ان اغني عن الحب ، ولكني واصلت الغناء للحب الحقيقي . للحياة .

هذه الفنانة الرائعة ذات الحس الانساني العميق انتقلت في عامها العاشر مع ابيها الى لندن ، وهناك ، في المدرسة عانت كثيراً من قضية اللاسامية ، وكان لذلك تأثير كبير عليها ، تقول : ان تكون مضطهداًوغير موغوب فيك يجعلانك ، شئت ام أبيت ، تشعر ماذا يعني ان يكون غيرك مضطهداً وغير مرغوب فيه . ربما كان من الممكن لو واصلت الحياة في الكيبوتس ان لا أعي ما يجري حولي – لانهم في البلاد – يهتمون باخفاء امور كثيرة ولكن عندما تكون في الخارج وتأتي

في الصباح الي المدرسة لتجد من يصرخ في وجهك (يهودي قذر) فانت تشعر بمأساة شعب يتعرض للاسلوب نفسه واقصد الشعب الفلسطيني.

فيما يتصل بهذا الموضوع ، اعني وجود اسرائيليين عقلانيين في المجتمع الإسرائيلي اود ان اشير الى علاقة اخوية ومراسلات جرت بيني وبين الشاعرة راحيل فرحي من القدس .

في احدى رسائلها تحدثت اليّ عن استلامها دعوة الى امسية شعرية في (دار بيالك) لتلقي فيها بعض قصائدها ، ثم قالت : « انني عازمة كذلك على ان اتطرق للحديث حول حق الفلسطينيين في تقرير المصير والتحادث معهم ، وان لا نعطي المجال لاولئك الذين يدخلوننا في دوامة لا تفضي بنا إلا الى الهاوية » .

وفي رسالة اخرى تقول : « ليس هناك من مبرر لان يموت طفل هكذا اعتباطا سواء اكان الطفل من هنا او هناك ، او تموت امرأة محبوبة او رجل في ذروة دنياه وصباه او شيخ يغرس كرما لابنه واحفاده ، لا يمكن للانسان الذي يكمن فينا ان يموت مرتين وليس لنا ، نحن معشر الشعراء ، ولا بأيدينا قرارات ولا محادثات السلام ، ولكن لنا ان نحتج وان نحارب بريشة اقلامنا وبزخم الحان كلامنا.

اقترح عليك ان تنضمي اليّ يا اختاه . حتى لو وقف العالم ضدنا، واقترح ان نحافظ على ارواح الاولاد الاحياء ، فآزريني يا اختاه ولسوف أشد أزرك لانقاذ ما يمكن انقاذه ولكن ليس عن طريق الحرب).

وكتبت اليها بتايخ ١٤/١١/١٩٧٤ اقول :

الشاعرة الاخت راحيل

سلام عليك وعلينا وعلى العالم سلام ، فما اجمل الكلمة – الحلم – الذي نسعى نحن الامهات الى تحقيقه .

اقول نحن الامهات ، انا التي لم الد ولداً في حياتي ، غير انني اشعر شعورا مكثفا وصميميا بانني امّ لكل اطفال العالم ، الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد ، وأؤكد لك انني على استعداد دائما لان اموت من اجل انقاذ طفل أيا كان .

تلقيت مجموعتك الشعرية (شاة في ازقة القدس) ومعها رسالتكَ اليّ ، وقد مضى وقت غير قصير قبل ان اتمكن من الاهتداء الى مترجم جيد . لقد تأثرت كثيرا بقصيدتك التي تردين فيها على قصيدتي (ايتان في الشبكة الفولاذية) واعلم انك ام لطفلٍ اسمه (ايتان) فها نحن نلتقي معا في تطلعنا نحو الخروج من دائرة الموت الدموي التي تحاصرنا – على اختلاف موقع كل منا .

(نأكل الحرب ونشرب الحرب . نشرب الحرب ونأكل الحرب)
هذا ما قاله شاعر عبري معاصر . (جئت احمل غصن زيتون بيد ومدفعا باليد الاخرى ، فلا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدي) .

هذا ما قاله قائدنا ياسر عرفات امس في هيئة الامم .

وكما قلت في ردك على قصيدتي : « ليس هناك من مبرر لان يموت طفل صغير سواء اكان من هنا او من هناك » .

انه صوت رائع ترفعه أم ضد الحرب يخترق قلب الام الاخرى على الجانب الاخر بكل ما في هذا الصوت من نبض انساني ؛ غير ان اختلاف الموقع يجعل الامر معقداً أشد التعقيد ، ويجعله مربكا الى حد التخلخل والعجز عن تجاوز الموقف ، الى حد انقسام شخصية الام الفلسطينية الى شطرين .

ام الطفل الاسرائيلي تربي ابنها في جو النصر والمكاسب الاقليمية والاعتزاز بالغلبة والتفوق والاقتدار . اما على الجانب الاخر فالام الفلسطينية التي عانت على مدى خمسة وعشرين عاما حياة التشرد والذل والانسحاق الانساني ، هذه الأم تتطلع وتطمح الى بناء عالم افضل وغدٍ اجمل تتحقق فيه لابنها حياة الكرامة والعزة واحترام الذات على ارض ينتمي اليها وتنتمي اليه .

لاشك في ان نقطة الالتقاء بين هذه الأم والام الاخرى على

الجانب الآخر تعترضها في الوقت الحاضر عوائق نفسية لاتقل شأنا عن العوائق والخلافات والتعارض الخطير في المواقف بين قادة كل من الجانبين المتنازعين.

انني اتساءل : هل يمكن ان يكون بوسع الام الفلسطينية تعليم اطفالها كيف يعيشون الاذلال مسالمين مستسلمين قابلين به ؟

انني كأي انسان سويّ ، احب السلام وانادي بالاخاء ، لكنني في الوقت ذاته ارفض الاستعباد والاعتداء . ان صراع الانسان من اجل حريته المسلوبة صراع ازليّ وابدي .

هذا ولعلنا نلتقي في وقت قريب يكون قد عم فيه الصفاء ، والنفوس استراحت عند شاطيء الامان والسلام بعد رحلة العذاب الطويل .

ولك تقديري واحترامي

فدوى طوقان

(١٦)

لابد لي من وقفة هنا مع المحامية اليهودية فيليتسيا لانغر ، تلك السيدة النبيلة التي نذرت نفسها للدفاع عن المناضلين الفلسطينيين ، ولمقاومة الاحتلال وكشف مظالمه امام الرأي العالمي . في كتبها « بأم عيني» و « أولئك اخواني » و « من مفكرتي » تكفلت فيليتسيا بوصف المحاكمات واساليب التعذيب ، وكشف الحقائق باسلوب وثائقي مخاطبة عقل العالم وقلبه ، بهدف ايقاظ هذا العالم المضلل الغافل ، واطلاعه على حقيقة سياسة التعذيب والتدمير النفساني والجسماني ، يدفعها حماسها الثوري وضميرها الحي الى تعرية ممارسات الاحتلال ومظالمه بالرغم من وسائل التهديد بخطف ابنها الوحيد وبالرغم من الهجوم على بيتها وتكسير ابوابه ونوافذه وتحطيم ما فيه . حين هدم بيت « حمزة » في نابلس كتبت قصيدتي « حمزة » ولا انس يوما زارني فيه حمزة برفقتها ، وفيما انا اقرأ تلك القصيدة بكت فيليتسيا وغطت وجهها وهي تقول : خجلى .. انا خجلى .. انا خجلى ! بعد ذلك بايام

طالعتني مجلة الاداب اللبنانية بتعليق كتبته تلك الانسانة الرائعة عن حادث الهدم قالت فيه :

(انني ابكي على انقاض بيتك يا حمزة ، ابكي لا على الاركان الجميلة ، ولا على البوابة المنحوتة حجرا ، والتي بقيت ذكرى لبيتك ، ولا ابكي ايضا على الازهار المدفونة تحت الانقاض ، على جرائم ابناء شعبي انا ابكي يا حمزة .

على تلك الايدي الهدامة .. على كونها ايدي ابناء شعبي ! اين انتم ايها الاباء والامهات في اسرائيل ، تعالوا معي الى هنا .

انظروا واشهدوا ما تبقى من بيت حمزة في نابلس البعيدة المروية بدماء ابنائها وضحايا ابنائكم التي تذهب عبثا ..

الم يهزكم دويّ المتفجرات ؟ الم يذكركم بالماضي الكريه ؟

لقد عاقبوك يا حمزة لان ابنك لم يرضَ التسليم بالاحتلال

هو إبنك ، لا انت ، ولكنهم بشرائع الاضطهاد حكموا عليك انت ايضا بالعقاب .

سألتهم ماذا يفعلون في مدينتك ؟ ماذا جاء بهم الى هنا ، الى ارض ليست لهم ؟

« قوة السلاح » يقولون لك ، وفي سخرية ، وينخفضون بطائراتهم فوق مدينتك ليؤكدوا لك قوتهم وتبتسم انت ، لانك متقدم في السن ، وتعرف مصير محتلي وطنك على مر الاجيال .

عالياً كان بيتك يا حمزة .

اشرفت منه على مدينتك الجميلة طوال سنين ، اليوم هو كالهيكل العظمي العاري ويخيل الى انه يصرخ :

كيف سمحتم يا ابناء الحضارة بان يحدث هذا ؟

يا اصحاب النفوس الرقيقة .. يا من تحملون الآم العالم . صممتم اذانكم ، وساعدتم الهادم !

ولكن الصرخة خرساء ، ولو كانت مسموعة .. خرساء لان الآذان مسدودة والقلوب مشغولة (بانقاذ الحرية) بعيدا عن شرقنا القديم ..

انا يا حمزة امد يدي اليك من فوق الانقاض ..

واستقبلت يدي بمحبة ، وقطعنا على نفسينا عهد الاخوة ، انت المضطهد وانا ابنة شعب ينتمي اليه اولئك الذين يضطهدونك . ولكني اقاتل مع خيرة ابناء شعبي ضد هادمي البيوت ومسممي الآبار . رغم اننا قلة اليوم يا اخي ، فان قوتنا ستنمو وتتصاعد ، لاننا نحن ابناء الضوء ،

ولابد في نهاية المطاف من ان نهزم ابناء الظلام .

ويومها يا حمزة نبني لك بيتا جديداً ، سيكون جميلاً كالقصر وستزهر من جديد حديقة الازهار في ساحته .

ستُرفع جدرانه الى السماء الهادئة ، وسترفرق من حوله اناشيد السلام ، لكن ليس من افواه الهادمين والمضطهدين .

على انقاض بيتك اقسمت ياأخي ان اجعل ذلك اليوم قريباً !

هذه الانشودة الحزينة ، المترعة بالاصداء التراجيدية وبما يشيع في كلماتها من نسغ انساني ، من يستطيع وصف تأثيرها بالكلمات ؟

(١٧)

استحضر ذكرى ذلك الصباح الكئيب .

وقفت بشباك بيتي المطل على بيت حمزة في سفح جرزيم ، وقفت لاشاهد اقبح لوحة ممكن ان ترسمها اصابع شيطان . الشرفات مفتحة على مصاريعها ، اثاث البيت يُلقى به من الشرفات ، الامور تجري على استعجال قبل لحظة التفجير ، حمزة يطل من احدى الشرفات ويهتف بصوت امتزجت فيه الكبرياء بدموع الانكسار :

الله اكبر الله اكبر الله اكبر

تعروني رعشة شديدة ، تنهمر دموعي ، تمر دقائق .. يغشى المنطقة المحيطة صمت مأساوي لا يلبث ان يتبعه صوت انفجار ، يتبع الانفجار غمامة كثيفة من الغبار تنتشر في الجو وتختفي الدار من الوجود :

(كان لم يكن بين الحجون الى الصفا

انيس ولم يسمر بمكة سامر)

في صباح اليوم التالي نزلت الى حيث كان بيت حمزة منتصباً ، وقفت باطلاله .. سألت عن رب البيت لاجده لاجئا مع عائلته في بيت احد الجيران . اكببت على يده المعروقة اقبلها ، أبللها بدموعي ، ورفعتُ وجهي ونظرت الى وجهه الهرم ، والى عينيه الساهمتين كان صمته البليغ اشد وقعا وتأثيرا من كل لغات العالم .

عدت الى بيتي في عز الظهيرة الملتهبة . تحت الشمس الحارقة . لم يكن بيت حمزة اول بيت فجره ديناميت جيش الاحتلال ، ولن يكون ، بالتأكيد ، اخر بيت .. ما اكثر اصحاب البيوت الذين مروا بتجربة حمزة ، وتظل القافلة تسير قدماً . وتظل التضحيات والقرابين والاضاحي تبذل بسخاء على مذبح الوطن المقدس ، ويظل تيار المقاومة، مدفوعا بايدي الشبيبة الباقين والاطفال الذين كبروا قبل الاوان ، يقف سدا معرقلاً في وجه طغيان الاحتلال وجبروته .

في مساء ذلك اليوم هربت من الصداع الشديد الى النوم مستعينة بحبة « فاليوم » ، استيقظت قبل منتصف الليل على صوت شقيقتي اديبة تناديني وهي تطرق بابي : فدوى ، الجيش يطوق الدار والجنود يسألون عنك .

افقت على المفاجأة ، ارتديت بسرعة (الروب دي شامبر) وفتحت الباب ليتدفق الجنود داخل البيت كالجراد .. وقفت لأتلقى الاسئلة من ضابط فرقة التفتيش : بلغنا انك تخفين سلاحا في بيتك . سلّميه لنا ، ذلك خير لك .. وبهدوئي القاتل نفيت التهمة بكلمة واحدة. هنا التفت الى جماعته، واشار لهم بحركة من رأسه انتشروا معها بسرعة هنا وهناك وشرعوا بعملية التفتيش . فتحوا الخزائن وسحبوا الجوارير ، نبشوا الاشياء ، امعنوا النظر في الاوراق الخصوصية وفي الصور ، اخرجوا الكتب من رفوفها . لم يتركوا زاوية تفلت من ايديهم، استغرقت العملية ساعتين ، انصرفوا .

كان النوم قد طار من عيني ، تلفّت حولي ملتمسة شيئاً اقرؤه . كانت بعض الجرائد مطروحة على احد المقاعد ، تناولت احداها وشرعت اقلب صفحاتها . لفتت نظري مقطوعات شعرية مترجمة عن العبرية للشاعر اليهودي التقدمي « ييبي » : Yeibi

« أحمد »

بيتك لم انسفه انا يا احمد

شننت حروبي على من فعلوا ذلك

نظيفا بريئا من الاثم آتي اليك

في نور يشعّ صداقة

هويّتك لم ارجمها انا بالحجارة يا احمد

حيث توجهت انشدت اغانيّ

انت وانا في البلاد

ولا مفر منها لا لي ولا لك

انا لم اسدّد قبضةً نحو وجهك يا احمد

قرفت من الذين فعلوا ذلك

والارض التي غرستني وغرستك

لابد ستحصد غلاتها

وفي مقطوعة اخرى تحت عنوان (من انت ؟) قال بيبي

من أنت ؟

لتحكم بالهوان على لاجئ

من انت ؟

لتغتصب ملكه وتصادر ارضه

من انت

لتتنكّر لصورته

من انت ؟

لتسحق هيئته بالاسلاك الشائكة

اذكر !

لاجئاً كنت !

على هذه المعاني السامية في القصيدتين غفوت ، وقد عاد لقلبي

المظلم نور ايمانه الضائع بوجود جوهر الخير في هذا العالم .

في صباح اليوم التالي حمل اليّ البريد رسالة من مردخاي أبي شاؤول.

فمن هو مردخاي أبي شاؤول ؟

اديب يهودي كبير ، شاعر ومترجم بارز ، تسكنني ذكراه دائما ، .خاصة حين تشتعل رغبة المحتلين في قهرنا واضطهادنا . كان انسانا مناقبيا عظيماً ، ناضل من اجل حرية الانسان ومن اجل مستقبل افضل ، خالٍ من استغلال الانسان لأخيه الانسان ، ومن استغلال شعب لشعب اخر . لقد ناضل ضد الاجحاف والتمييز والاضطهاد القومي واحتلال المناطق العربية ، وسياسة التوسع الاقليمي ، كما دعا الى الانسحاب والسلام والمحبة ، ومن موقعه الرئاسي في عصبة حقوق الانسان ظل يبدع ويناضل الى ان توفاه الله بعد ان تجاوز الثمانين .

حين زارني لاول مرة بصحبة الكاتب يوسف الغازي واريك رولو الصحفي الفرنسي والكاتب السياسي المعروف ، الذي كان في زيارة استطلاعية للبلاد ، وكان يتكلم العربية بلهجة مصرية ، دار الحديث حول الموضوعات الساخنة يومئذ وحول احوالنا في الضفة والقطاع ، وعن أهم ما يجري في الساحة : هل ستقوم حرب اخرى ؟ وهل تغامر مصر بمحاولة استعمال القوة ضد اسرائيل . ولم يستطع احد

منا وضع اصبعه على الجواب الصحيح .

حين همّا بالمغادرة هو ويوسف الغازي الكاتب التقدمي ليقوما بزيارة للسيد حكمت المصري . آثر ابي شاؤول البقاء على ان يعودا اليه بعد انتهاء زيارتهما للسيد المصري .

وتدفق ذلك الانسان الوقور الرائع ، وأفاض بالحديث عن اشياء في الداخل كانت بالطبع مجهولة لديّ . كما ابدى استنكاره الشديد للحملة الظالمة التي قامت بها ضدي الصحافة الاسرائيلية بسبب قصيدتي (آهات امام شباك التصاريح) .

بعد اسبوع من تلك الزيارة وصلتني منه رسالة مرفقة بقصيدة جميلة ، كتبها بالانكليزية بعنوان (في الهزيع الاخير من الليل) :

في الهزيع الأخير من الليل

بصمت ، وجنبا لجنب

في ظل « عيبال » المتقد

دمدمة بعيدة

امواج الكذبة تتنكر للفجر

* * *

عيناك

وردتان سوداوان

مزروعتان في جمر النار

* * *

مع ذلك ، في مكان ما

صفرت بعض المعادن

وهناك مازال السلاح يصفر

زمن رحم مدينتك

وُلدت صلصلة الحديد المكظوم

* * *

كبريق سكين استحضرت ذاكرتنا

الطير الخرافيّ « الخطّاف » [1] Harpy

ذا الشكل الآدمي

الذي ولد افاعي بهمسة

* * *

لآليءُ من المرجان

كانت تتقطر من وجهك

قرب المداخل الحزينة لينبوعنا

* * *

---

1) الخطّاف Harpy : مخلوق خرافي خبيث نصفه امرأة ونصفه طير ، نّهاب سلاّب ..

حنونين ، بألم مطارد ومكبوت

شربنا عصير تفاح مرّ

من كؤوس اعياد الموت

* * *

اصابع من بورسلين رسمت

علامات غريبة فوق صفحة الليل

أفزعت الحصون الجليدية

* * *

مشتملين بالبحر المرتعش

ابحرنا معا يا اختاه

كيف يمكن للندم ان يخالجنا بينما نحن في القارب المملوء بالرجال المذبوحين

* * *

آه ! بعدئذ ألقينا القصيدة تلو القصيدة

في القبر المغنى « اتلانتيس » (٢)

---

(٢) اتلنتيس : جزيرة خرافية في المحيط الاطلسي ، غربي جبل طارق زعموا انها غارت في اعماق المحيط .

وشحبت الظلال في تلك الدوامة

* * *

سيذكرنا الناس معاً بغبطة

في الايام العطشى المقبلة

حول المائدة وسيتعجبون

* * *

في الهزيع الاخير من الليل

طرقة على الباب

انه منادٍ برسالة صامتة :

« الشمس تسطع »

عندئذ اكون حراً بين الاموات

في الريح الشرقية سوف اصغي

الى انباء كهذه .

١٩٦٩/٣/٥

(١٨)

مساء الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠

تطرق بابي جارتي شقيقتي أديبة ، يطل عليّ وجهها واجماً محاطاً بهالة مأتمية . أنظر في عينيها المخضلتين بالدمع ، احسّ بنبض مأساة قادمة ، قلبي يهوي هوياً شديداً .

– : ماذا ؟

– : جمال ! واختنق صوتها . .

– : ماذا ؟ خير يا رب !

– : مات !!

وتضرب الكلمة قلبي مترعةَ بالأسى والفجيعة .

أكبر ألم عندي هو ألم الشعور بالموت حين يفجعني بحبيب . كانت فجيعتي عام ١٩٦٣ بمصرع شقيقي نمر لا حدود لها . وكان من

المستحيل عندي أن ترقى إلى مستواها أية فجيعة فقدان أخرى حتى لو شملت كل أهلي . في تلك الأيام المثقلة بالحزن والثكل ، وجدتني أطرح على نفسي سؤالاً غريباً دهمني وأنا في غمرة ذهولي وضياعي : تُرى لو خيّرت بين موت نمر وموت جمال عبد الناصر أيهما أختار ؟ وعجزتُ عجزاً تاماً عن الإختيار واستحال عليّ الوصول إلى نتيجة . لم يكن ممكناً أن أفدي أحدهما بالآخر ... بلى ، إلى هذا الحد بلغ ضني بجمال .

عجيب هو الموت ، نقف ازاءه واجمين ، ذاهلين أمام السرّ الذي يحيط به ، نحن نرفض مواجهة هذه الحقيقة المطلقة ، ويصعب علينا التوصل إلى تفاهم مع غموضها ، كما يصعب علينا التغلب على الثكل والفقدان الذي تمتلئ به قلوبنا .

بعمق كبير أحسست بموت جمال ، وبعمق كبير تألمت . لم أستطع إحتمال أن ينساب جمال إلى عالم الظلمات والفناء الشامل ، هو الذي نشر ضياء الحرية في السماء العربية . كنت أقول دائماً أن وجوده على الأرض العربية هو الأمل ، الله في السماء والأمل على الأرض ، جمال الأمل ، جمال العظمة والرمز والمعنى بكل المقاييس . هو خالق الروح الثورية ليس في أمة العرب فحسب بل وفي شعوب أفريقيا . هذا القائد العربي الوحدوي التاريخي ، الذي ظلت الشعوب العربية تنطوي له على عشق يومي لا يقف عند حد . هذا الذي أعاد عصب الحياة في

الأمة العربية وصنع لها الأحلام والآمال ، ووهب عمره وعصارة روحه لشعب مصر وللشعوب العربية كافة .

أيام النزاع الدموي بين الفلسطينيين والأردنيين بذل كل طاقاته وجهده للتوصل إلى عقد مؤتمر قمة في القاهرة تم فيه توقيع كل من الملك حسين وأبي عمار على اتفاقية يتوقف بمقتضاها نهر الدم

بذل من نفسه للآخرين ، انكر على نفسه الراحة فيما هو يعاني حالة مرض خطير انتهى به إلى الموت ، مقتولاً بالتعب :

في احتدام الدم والنار وطغيان الجنون
بسط الفادي نبي الحب كفيه علينا
وافتدانا
آه ما أغلى الفداء !
واشترانا
آه ما أغلى الثمن !
وعلى وخز مسامير الألم
وعلى حزّ سكاكين العياء
اسند الرأس وارخى
هدب جفنيه ونام
وبعينيه رؤى الحب وأحلام السلام
* * *
آه ما آن له أن يترجل

والتوت فوق أساها الفَرس الثكلى وتاهت مقلتاها

في الخضم الآدمي الهادر المسحوق ، من يفدي فتاها

من يفك الفارس الغالي المكبل

من إسار الموت

من يرجعه العاشق المدنف

للصهوة ، للساحة من يرجعه ؟

والتوت فوق أساها الفرس الثكلى وعرت حزنها

آهاً فآها

من يفك الفارس الغالي المكبل

آه ما آن له ان يترجل !

في صباح اليوم التالي هبطت من بيتي إلى قلب المدينة ، لأجد إيقاع الحياة في نابلس وقد تحوّل إلى إيقاع جنائزي . الوجوه واجمة تحمل معاني الثكل والفجيعة واليتم . جمعية الإتحاد النسائي تفتح أبوابها لاستقبال المعزيات ، وتنظم موكب جنازة رمزية سارت فيها السيدات وطالبات المدارس . المهابة والجلال يحفّان بالموكب الصامت الذي ظل يخترق الشوارع لمدة تزيد عن الساعة .

* * *

(١٩)

١٧/ أكتوبر ١٩٧٢

جهاز الراديو يبث نشرة الأخبار الصباحية ، خبر ليس كالأخبار ، خبر فاجع إلى أقصى حدود الفجيعة :

(إغتيال وائل عادل زعيتر ، ممثل حركة التحرير الفلسطينية في روما) :

وائل زعيتر ، الإنسان الذي احتشد في قلبه وفكره الوطن والقضية ، والقيم العليا ... والذي رفض استلام مسدس قُدِّم إليه ليكون عوناً له على حماية حياته في حالة المواجهة مع خطر مداهم .

لقد عرف القاتل الغادر ضحيته حق المعرفة ، عرف مكامن الخطر المتجسد في بقاء وائل الفلسطيني حياً . ألم تكن رسالته في المنافي التي قطعها في خياته العريضة العميقة ، هي وضع الحقيقة الفلسطينية في

منطقة الضوء ، حيث ظلت هذه الحقيقة غائبة عن عيون الغربيين وأذهانهم ، وحيث ظلت الدعاية الصهيونية المضادة هي المسيطرة على الرأي العالمي الغربي ؟!

إثنتا عشرة رصاصة يا وائل ، تستقر في جسدك الطاهر ، وتخترق رأسك التي ظلت موطناً لافكارك المسالمة الإنسانية . تلك الأفكار التي كانت تنفذ في عقول من كنت تلقاهم وتتحدث إليهم في الغرب ، وتنفي من أذهانهم المضللة ما وقر فيها من وهم .

في رسالة من وائل إلى إبن أخيه التلميذ عادل زعيتر يقول : كم هو محزن يا عادل ، وكم هو مثير للتشاؤم ، أن يتحول الإنسان إلى الحس الحيواني ، ويعتنق شريعة الغاب ، ويصبح قاتلاً ظالماً ... تصور ، كيف يمكن للإنسان أن يعيش بسعادة وهو يرقص على أشلاء وتعاسة الآخرين ؟ كم يشتد حزني إذ أرى بعض الدول التي تعتبر نفسها متفوقة ومتحضرة ، تقدم لليهود الطائرات والدبابات والمساعدات التقنية والمادية، لتحارب بها شعبنا الفلسطيني وتقتله وتطارده وتخرجه من أرضه وبلاد آبائه وأجداده ، بدلاً من تقديم النصح إليه وصحوة الضمير. ورغم ذلك إياك والتشاؤم ، لأن هذه الفترة القاسية من حياتنا وتاريخنا ، لا بد من أن تزول بهمة أمثالك من شبابنا الجاد ، والمثقف الصالح .

في حديثه عن وائل قال صديقه وخاله الأستاذ عدلي عبد المجيد : « ورغم أن وائلاً كان أيضاً من الذين أدمت قلوبهم مأساة الشعب

الفلسطيني بصفته واحداً منهم ، وأن ألمه هذا انتهى كما هو معروف إلى صراع مرير ضد تلك القوى الغاشمة ، إلا أنه كان الأكثر تفاؤلاً ، وربما الأكثر تفهماً لطبيعة الصراع الإنساني في هذا العالم ، بحكم بصيرته الثاقبة وما فطر عليه من الهام وقدّرة على فهم حركة التاريخ . والا فما معنى أن يرفع من المعنويات ويستثير الأمل والتفاؤل في قلوبنا ، في الوقت الذي يعاني هو فيه أيضاً من آثار الكارثة » .

في مقال له بين مقالاته الذكية المفعمة بالأبعاد الفكرية والمضامين الإنسانية والوطنية يقول وائل : إن الإنسان المهدد بفقدان أرضه يدافع عنها ولو بدفع حياته ثمناً لذلك . إن الإنسان الحقيقي ، هو ذلك الشخص الذي يخرج من دنياه الذاتية ، وطموحه الشخصي ، فيرتبط بقضية وطنه وأمته ، ويعطي لهذه القضية كل ما لديه » . وهل كانت حياة وائل ، وهل كان استشهاده إلا تطبيقاً وإنسجاماً مع موقفه المنبثق من هذا الوعي السياسي العميق .

قبل بضعة أعوام ، شهدت على شاشة التلفزيون ، ذلك الفيلم الرهيب المسجل على كاسيت ڤيديو ، والذي تم انتاجه وإخراجه في إسرائيل ... إسم الفيلم (سيف "جدعون المسلول")[1] وفيه نشهد كيف تمّ تدبير مؤامرة إغتيال وائل ، وكيف تم تجهيز طاقم الجريمة ، وتوجيه المتطوعين الأربعة لإنجازها .

---

١ - جدعون ، أحد قضاة بني اسرائيل .

قبل إنطلاقهم في مهمتهم الجهنمية يقومون بزيارة لرئيسة الحكومة غولدا مائير . تقول غولدا للمتطوعين فيما هي تقدم إليهم فناجين الشاي: (إنني أكره الإرهابيين لأنهم يجعلون من أبنائنا قتلة) .

يا إلهي ، أعنّي على تحمّل ما أرى وأسمع . أية مغالطة هذه ؟! وهل قامت دولة إسرائيل على شيء غير الإرهاب والمذابح وقتل الأبرياء من الفلسطينيين شيوخاً ونساءً وأطفالاً ، وطردهم من بيوتهم ؟!

في مشهد آخر ، يدخل أحد اليهود على طاقم الجريمة ، يعرفهم بنفسه : (أنا قائد المؤسسة . ستقتلونهم جميعاً ، على رأس القائمة علي حسن سلامة ، ثم أبو داود مؤسس منظمة أيلول الأسود ، محمود الهمشري ممثل منظمة التحرير الفلسطينية ، محمد أبو دية ، منظم عملية ميونيخ ، وائل زعيتر ، خبير المتفجرات ...)

هنا ضحكت لأمنع نفسي من البكاء ، ضحكت لكي لا أبكي .

وائل خبير المتفجرات ؟! هذا الإنسان العظيم بكل مقاييس العظمة والإنسانية ، المتحضر بكل مقاييس الحضارة ، وائل الذي لم تعرف أصابع يديه يوماً كيف تتعامل مع القتل ، أو مع المسدس ، حتى لمجرد حماية نفسه والدفاع عن حياته !!

وتنتصب في خيالي صورة وائل الزاهد ، ذي النزعة الصوفية ، الذي كان يدخر قروشه القليلة لشراء الكتب ، والسيمفونيات المسجلة،

وارتياد الأوبرا والمسارح الثقافية) . ويتردد في ذاكرتي صدى كلمات السيدة ميسون ، تلك الأم الفاضلة ، المثقفة ، الصديقة العزيزة : (إنني أعلم بأن نشاطه كان فكرياً ، إنسانياً ، بعيداً كل البعد عن أي شيء إسمه العنف والرصاص . لقد رفعت يدي وعينيّ إلى الله ، أشكو تلك اليد الأثيمة الغادرة التي ما خلقت إلا لتملأ الأرض ظلماً وعنفاً . لقد عدت إلى نفسي استعرض ذلك الإبن المرهف الحس ، والذي عرفته منذ نعومة أظفاره وديعاً ، هادئاً ، يتحسس بعمق مآسي الناس ويساعد كلاً منهم بأقصى إمكانياته وطاقاته ، حتى إنه ليسحق نفسه سحقاً في هذا السبيل).

يا أم وائل ، يا صديقتي ، هل غاب عنك أن نشاطه الفكري ، واتصالاته المباشرة ، وعلاقاته بأصحاب الفكر والقلم في الغرب ، ودعايته المؤثرة فيهم لقضيتنا العادلة ، كانت تشكل بالنسبة للعدو خطراً أشد من خطر الرصاص والمتفجرات :

حينما الليل الذي أغمض عين الشمس أمسى في خطر
حينما مستنقع الأكذوبة النكراء أمسى في خطر
حينما الوجه الذي
قنعت تشويهه الأصباغ أمسى في خطر
حينما الدنيا الهلوك
وقفت ضدك واستعصيت أنت

وتأبيت على العالم أنت
أقبلوا في معطف الليل وداروا في الظلام
دورة غدارة واقتنصوك !

* * *

حدثني الصديق صليبا خميس الذي كان في روما يوم إرتكاب الجريمة ، قال : إن عدداً كبيراً من أدباء إيطاليا الذين عرفوا وائل حق المعرفة وفدوا إلى مطار روما لتوديعه الوداع الأخير يوم نقل جثمان الشهيد إلى دمشق ، ناهيك عن مقالات الرثاء العديدة التي كتبها مفكرون وأدباء إيطاليون لهم وزنهم وثقلهم في الساحة الأدبية في أوربا ، أمثال جان جينيه وردنسون ورفائيل البرتي ، وبرونو كالي ، وجانيت فين براون وبترو بتروتش وارمينيوسا فيولي الذي قال عن وائل في مقال نشرته جريدة « الاونيتا » عام ١٩٧٩ تحت عنوان : وائل زعيتر، المفكر والمناضل الذي عبر بصدق عن كل ما يحيط به . وهو الذي اختار التقشف مثل غاندي وغيفارا كوسيلة لحياته النضالية ؛ لقد كان وائل يرى تفاهة أن يعمل عدة ساعات لكسب ما ينفقه على شراء سترة لم يكن بمقدوره إلا أن يخلعها ليعطيها لإنسان أكثر منه فقراً » .

ونحن ، حين نقرأ ما كتبه الروائي العالمي البرتو مورافيا عن وائل ، صديقه الحميم نشعر بعمق خسارتنا لهذا الإنسان الفلسطيني الفذ ، قال

مورافيا : « كان وائل عالماً أسطورياً بلا حدود ، كان بفقره وبساطة حياته يجعل المرء يفكر حتماً بذلك العالم الغني والمعقد الذي راح وانتهى ... كان وائل يعرف أنه يعيش خارج حدود الزمن ، كان وائل صديقي ... قتلُه لم يصبني فقط بألم شديد ، بل ... كيف يمكن القول ، لقد فجعني ايديولوجياً أيضاً » ...

يا بعيداً وقريبا ، يا الذي نحويه فينا ، في الخلايا

في مسام الجلد ، في نبض الشرايين التي وترها الحزن المكابر

يا بعيداً ، يا قريباً ، نم على الصدر الذي يفتحه « عيبال » من أجلك –

أسندْ

رأسك الشامخة اليوم إلى « القبّة » فالصخرة في القدس

احتوتك – الآن

حين الموت أعطاك الحياة

انت يا

موقظ الدنيا التي

عفنْت لباً وقشراً

عطبت لحماً وعظماً ، أنت يا

باعث الهزة في الدنيا الموات

أنت يا ملقىً بلا أهل ، بلا أرض ، على –

أرصفة الغربة ملقىً ، نازفاً تحضن في الصدر

بساتين الوطن

وسماوات الوطن

والسهول الحالمات

بالأخاديد وبالمحراث والأمطار ، يا من

حزنه كان بأرض التيه والتشريد خبزاً

نبعَ ماءٍ ، قمراً يسطع في ليل الشتات

أنت يا من قلت « لا » للموت والتيه وللوجه الذي

عشرين عاماً ظل مسروق الهوية

أنت يا شمس القضية

نم هنا في الوطن الحاني فأنت الآن فيه

يا بعيداً وقريباً ،

يا فلسطيني أنت !

أيها الرافض للموت قهرت الموت حين اليوم مت !

* * *

(٢٠)

في يناير عام ١٩٧٢ زار القدس الفيلسوف الأمريكي ، أبو اليسار الجديد ، هربرت ماركوز ، بدعوة من معهد (ڤان لير) حيث قدم حلقة دراسية مفتوحة (سيمنار) موضوعها (في حقل الفلسفة وعلم الجمال) جرت بعدها أسئلة واجوبة حول الموضوعات السياسية الساخنة في ذلك الحين .

في زيارته تلك ، عبر ماركوز عن رغبته في لقاء بعض الفلسطينيين واجراء حوار معهم .

برفقة اليعازر بعيري رئيس الدائرة العربية لحزب المبام آنئذ ، وفد ماركوز بصحبة زوجته إلى نابلس ، واستقبلتهم ببيتي في ضحى يوم مشمس . خلال تبادل الحديث اخبرته عن وجود ثلاثة كتب له في مكتبتي مترجمة إلى اللغة العربية ، فقال بدهشة واستغراب : أنا لا علم

لي بترجمة بعض كتبي إلى العربية . بعد ذلك حدثني عن دعوة تلقاها من مصر بتوقيع الأستاذ لطفي الخولي ودعوة أخرى من بيروت بتوقيع الدكتور سهيل إدريس . لكن وبالرغم من موافقته على تلبية الدعوتين لم يتلق أي رد من أحد الجانبين بصدد تحديد موعد للزيارة ، وكان حريصاً كما قال على زيارة البلدين العربيين قبل زيارة كان يزمع القيام بها لإسرائيل . وقد وعدته بالكتابة بهذا الشأن إلى الأستاذ الخولي وإلى د. سهيل إدريس . وقد فعلت ، لكنني في الحقيقة لم أتلق رداً من أحد الطرفين . ولعل خلاف ايديولوجية اليسار الجديد مع الايديولوجية الشيوعية كان وراء ذلك الصمت .

والتقى ماركوز في عصر ذلك اليوم بعدد من المثقفين الممتازين بنابلس كان من بينهم السيد حمدي كنعان رئيس البلدية آنذاك ، و د. شوكت زيد الكيلاني و د. فؤاد الطاهر وزوجته السيدة نهاية والمرحوم يوسف رضا .

شرع الزائر الأمريكي يطرح السؤال تلو السؤال وكانت أسئلته ايحائية Leading Questions بكل معنى الكلمة . فشرح له الحضور ، وكانوا يتميزون بقوة الحجة وقوة الإقناع ، شرحوا له حقيقة الأوضاع في الأراضي المحتلة ، وقدموا له صورة واضحة شاملة عن معاناة الشعب الفلسطيني تحت الإحتلال العسكري مما ترك في نفسه ونفس زوجته أبلغ

الأثر . وقد ذكر لي الدكتور مناحيم ميلسون [1] فيما بعد ، وكان مرافقاً لماركوز في تلك الزيارة ، أن ذلك اللقاء كان ناجحاً بحق ، يشير بذلك إلى نجاح اولئك الفلسطينيين في طرح قضيتهم وتصوير أوضاعنا تحت الإحتلال .

بعد يومين من عودة البروفسور ماركوز إلى أمريكا ، قرأت في جريدة جروزليم بوست تصريحاً له في مؤتمر صحفي كان قد عقده قبل مغادرته للقدس ، وكان تصريحاً مفعماً بروح العدل والإنصاف والتفهم الحقيقي لمعركتنا مع الإحتلال ، قال فيه : إنني كيهودي كابد ظلم النازية للشعب اليهودي ، لا يسعدني إطلاقاً أن أرى إسرائيل وقد تحولت إلى دولة ذات روح عسكرية ، تكيف حضارتها المادية والفكرية لتتلاءم مع المتطلبات الحربية . لقد تشرد الفلسطينيون مرتين بسبب المطامح الاقليمية للصهيونية . هل معاناتهم في أوروبا تعطيهم الحق في تشريد مئات الالاف من العرب ؟ إنني أعارض الكذبة الصهيونية التي تقول : « إن (إسرائيل في خطر) » ، بالعكس ، لقد هاجمت إسرائيل العالم العربي

---

(١) عضو المجلس التنفيذي لمعهد « ڤان لير » وعميد كلية الآداب في الجامعة العبرية في القدس . في ربيع عام ١٩٨٩ طرح أسساً سليمة يمكن أن تقوم عليها التسوية السلمية : الإعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . ترتيبات دفاعية تمنع نشوب حرب جديدة في المنطقة ، استغلال ميزانيات التسلح لرفاهية شعوب الشرق الأوسط ، مشاركة دولية في تثبيت وضمان التسوية السياسية.

مرات ومرات خلال الخمس والعشرين سنة الماضية . يبدو أن إسرائيل هي الولد الصغير المدلل لدى العالم السياسي الغربي . يجوز لها أن تفعل ما تشاء .

تهاجم إسرائيل رجال المقاومة ، مدعية الدفاع عن النفس . يجب أن يعرف الإسرائيليون من تجاربهم أن القوة لا تستطيع أن تحطم شعباً».

أثار هذا التصريح غضب الإسرائيليين . كما ردت بعض الصحف عليه بقولها : « ليتفضل ماركوز ويعيش في إسرائيل المهدد أمنها ... » .

وهكذا ، وكما في كل مرة ، تظل دعوى (الأمن القومي لإسرائيل) ، الدولة المحصنة بأحدث الأسلحة المتطورة ، وأقوى دولة في منطقة الشرق الأوسط ، تظل دعوى أمنها الذي لا يعرف أحد حدوده ولا أين يبدأ ولا أين ينتهي ، هي الحجة والمبرر لاحتلال الأراضي وممارسة القمع الذي يكتوي بناره سكان الضفة والقطاع .

كان ذلك التصريح العادل بالغ الأثر بالنسبة لي فكتبت إلى البروفسور ماركوز أقول :

عزيزي بروفسور ماركوز

لا يسعني وقد قرأت بيانك الصحفي في جريدة جروزليم بوست إلا أن أعبر عن بالغ شكري وتقديري لروح العدل والإنصاف التي تجلت فيه .

نهار الثلاثاء الماضي التقيت ببعض معارفي العرب في القدس ، وكانوا قد قرأوا تقريرك المنشور في الصحيفة الإسرائيلية ، ولقد ناقشنا آراءك المطروحة في ذلك التقرير ، وانتهينا إلى النتيجة التي تقول أن آراءك لا تتعارض مع آرائنا ، وأننا لا نطلب أكثر مما اقترحت بصدد تسوية عادلة . حبذا لو كان الجانب الآخر على استعداد لدفع الثمن من أجل السلام .ولكن من المؤسف أن حديثهم عن السلام هو فقط حديث صادر عن الشفتين لا عن القلب .

بصدد الدعوة التي تلقيتها من مصر وبيروت أحيطك علماً بأني كتبت إلى المعنيين بالأمر ، كما أنني أرسلت إليهم نسخاً مصورة عن تقريرك المنشور في جروزليم بوست .

مرة أخرى أعبر لك عن تقديري العميق لموقفك المنصف تجاه قضيتنا .

تحياتي وشكري إلى السيدة زوجتك .

فدوى طوقان

وقد تلقيت منه الرد التالي :

عزيزتي الآنسة طوقان

لقد سعدت جداً برسالتك . إن ما أرغب فيه هو الإستمرار في محاولة الإسهام بتقديم خدمة صغيرة (وهذا قصارى ما استطيعه) من أجل التفاهم والسلام بين العرب واليهود . لا أزال اعتقد أن بالإمكان تحقيق ذلك مع العدل والفائدة للجانبين رغماً عن السياسيين . دعينا نمضي في العمل معاً .

مع أحسن تمنياتي
هـ . ماركوز

كانت هذه السطور مصحوبة برسالة من زوجته تقول :

عزيزتي الآنسة طوقان .

إسمحي لي أن أضيف بضع كلمات إلى رسالة زوجي ، أولاً أحب أن أخبرك وأخبر أصدقاءك في نابلس ، كم كان مهماً لنا أن نلتقي بكم ، وكم تعلمنا منكم جميعاً،المشاهد ، المعاناة ، تجارب الفلسطينيين العرب في الأراضي المحتلة . هذه كلها ليست واضحة في عالمنا الغربي خصوصاً في الولايات المتحدة . يومياً نحصل على بيانات عن إسرائيل ، عن يهود روسيا ، مقابلات مع شخصيات إسرائيلية . نحن نسمع فقط عن عرب غير فلسطينيين ، مصريين ، أردنيين . الخ ... حين نسمع عن

عرب فلسطينيين نسمع عن رغبتهم في القاء اليهود في البحر المتوسط ، عن إقصائهم وتشتيتهم ، عن شنّ الحرب على إسرائيل ، أو عن نشاط وأعمال الإرهابيين . ليس هناك إدراك لما يمكن أن يدفع شعباً بعد أربع سنوات من الإحتلال ، إلى اليأس وإلى أعمال يائسة .

قال دايان أمس في صحيفة لوس انجلوس تايم – جريدة منطقتنا – « إذا ما سُئل العرب الفلسطينيون الذين يعيشون الآن في إسرائيل (ليس الأراضي المحتلة في حرب ١٩٦٧) عما إذا كانوا يفضلوا البقاء أم الإلتحاق بدولة عربية ، فإنهم سيقولون إنهم يريدون البقاء في دولة إسرائيل ، يعني طبعاً ، أن العرب راضون تماماً بحياتهم في إسرائيل . أذكر الآن ما قاله أحد أصدقائك د. كيلاني أننا في الغرب لا نقدركم يلتصق العربي ببيته ووطنه .

اكتب لك عن كل هذا لا لكي أؤلمك ، لكن لأوضح لماذا الرأي العام اليهودي وغير اليهودي خارج إسرائيل ، مبلبل بخصوص حقيقة حياة العرب في إسرائيل أو في الأراضي المحتلة . هناك الآن عدة كتب تصف تجربة اليهود في بناء إسرائيل . مثلاً كتاب عاموس الون (إسرائيل) الذي يضم في الحقيقة فصلاً عن العلاقات اليهودية بالعرب ، عن جهل الصهيوني المتعمد أو الساذج للشعب الفلسطيني خلال الحركة الأولى للصهيونية . لكن هذا قسم صغير جداً من الكتاب أما بقيته فعن قصة الصهيونية في فلسطين من وجهة النظر اليهودية .

ما أظنه هو أن الحاجة ماسة إلى كتاب من هذا النوع من الجانب العربي ، كتاب قابل للقراءة بكل ما في الكلمة من معنى thoroughly readable ، غير عاطفي نسبياً ، وبغير مصطلحات سياسية وايديولوجية مما يقف في طريق ابتعاث تعاطف القارئ العادي وتفهمه . أقول القارئ العادي ، لأنه يوجد طبعاً عدة تقديمات ذكية لعلماء سياسيين ومؤرخين عرب وانكليز في الأغلب ممن يعرضون القضية ، لكن هذا يُكتب من أجل فئة متمرسة جداً ،والذين هم معنيون بأن يعرفوا ، أعني المتخصصين بشؤون الشرق الأوسط ، هل تظنين أن من الممكن قط أن تضعوا معاً ، أنت وكتاب آخرون من أصدقائك كتاباً كهذا ؟ أتصور أنه لن يكون هناك أية صعوبة في ترجمة هذا الكتاب - إن وجد - إلى الانكليزية وإلى لغات أخرى . إن في فكري مثلاً التجارب البسيطة التي مرت بنا في نابلس وأماكن أخرى . ماذا يعني التعبير الإنساني (قانون العودة) الشهير للعربي الفلسطيني .

كما ترين ، من الصعب جداً على اليهودي (وعلى بقية العالم بأسره) أن يرى نفسه هو المضطهد . هناك سدٌ حقيقي في عقل معظم اليهود يمنعهم من أن يأخذوا بجدية ما يسببونه من ألم للآخرين ، إنها تحرك في الإتجاه المعاكس تجربة عنيفة مروا بها . ومع ذلك هناك كثير من جيل الشباب في إسرائيل وخارجها ممن بدأوا يدركون هذا ، وهناك حاجة ماسة لتنمية هذا الإدراك .

أجبت على رسالة السيدة ماركوز بالرد التالي :

عزيزتي السيدة ماركوز

أشكرك كثيراً على رسالتك الصادقة ، لا يمكنك أن تتصوري مدى تقديري للموضوعية التي تجلت في رسالتك ولعمق تفهمك للمسألة الفلسطينية .

في الحقيقة إننا نشكو دائما من لامبالاة العالم الغربي بقضيتنا ، ولا ريب في أهمية وجود مثل هذا الكتاب الذي اقترحت علينا كتابته .

من جهة أخرى يذكرني هذا بتجربة مرّ بها في أمريكا الكاتب الفلسطيني سامي هداوي مؤلف كتاب عنوانه (فلسطين – ارث ضائع) هذا الكتاب المطبوع في دار النشر Naylor Company « سان انتونيو – تكساس » لم يتمكن ناشروه من وضعه في أية مكتبة تجارية في أمريكا، وكان مرفوضاً من قبل كل المكتبات هناك ...

وددت لو قرأت كتابه الثاني (الحصاد المر – فلسطين بين ١٩١٤–١٩٦٧) الصادر عن دار النشر (العالم الجديد – نيويورك » . هذا الكتاب جيد التوثيق ، وقد كُتب بموضوعية كبيرة ، ناهيك بالطريقة الواقعية التي أرّخ بها لأكثر الحوادث .

أملي أن نتمكن من إنجاز كتاب كالذي اقترحته . أظن أنه قد حان

الوقت لكتابته . إننا ندرك أهمية توضيح آرائنا وتجاربنا في الأراضي المحتلة وضرورة وصولها إلى العالم الغربي .

أصدقائي يشاركونني تقديم خالص التقدير والشكر لك على رسالتك الرائعة ، وموقفك الإنساني من معاناتنا نحن الفلسطينيين ، ومن وضعنا المأساوي .

مع أحر تحياتي وتحيات أصدقائي لك وللبروفسور ماركوز

المخلصة

٣ / فبراير / ١٩٧٢ فدوى طوقان

أود أن أخرج عن مجرى الحديث حول تلك المراسلات ، لأقول أنني حين قرأت كتاب (الحصاد المر) ، لفتت نظري الإشارة التي وردت في إحدى الصفحات الأولى معلنة صدور ثلاث طبعات من الكتاب في أمريكا خلال عام ١٩٦٧ ، الأولى في شهر يوليو والثانية في أغسطس والثالثة في أكتوبر .

لقد داخلني شك ، وداخلني ظن غير برىء فيما يتصل بإعادة طباعة الكتاب مرات ثلاثاً خلال خمسة شهور لكاتب فلسطيني في أمريكا ، طرح فيه مؤلفه المسألة الفلسطينية بموضوعية ، وبدون مرارة

تجاه اليهود من حيث هم شعب ، أو اليهودية من حيث هي دين ، وأرّخ للحوادث بطريقة موضوعية وواقعية . أما مصدر هذا الشك فهو معلوماتي عن ملاحقة المنظمة الصهيونية المعروفة باسم بناي بريت Bnai Brith والمعروفة بقوتها الرهيبة في « ممارساتها الشاملة في كل ميدان له علاقة بإسرائيل والقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي بكل أبعاده » .

فهي تلاحق كل كتاب ممكن أن يترك أثراً في نفس القارئ أو إنطباعاً ذهنياً ونفسياً بصورة شعورية أو لا شعورية ، وتحول بكل الوسائل دون إنتشار مثل هذا الكتاب ، فتلجأ إلى شرائه من المكتبات التجارية لتقلص ما أمكنها من مدى انتشاره . واذكر هنا مثلاً ملاحقتها لفيلم (حنا .. ك)الذي أخرجه كوستا كافراس ، لكون هذا الفيلم يقدم – في رأيها – صورة مشوهة لممارسات إسرائيل وافعالها بالنسبة لقضية اللاجئين الفلسطينيين . فقد سعت إلى إضعاف تأثير ذلك الفيلم وإزالة الإنطباعات التي حققها ، وذلك من خلال توجيهات وملاحظات قدمتها، (وتقدمها عادة) إلى جميع التنظيمات والإتحادات الأعضاء ، ومجلس حكام « بني ريت » .

(٢١)

لم يغب حضور المرأة الفلسطينية عن الوجود في قلب النضال منذ الارهاصات الاولى حتى الان ، سواء أكان ذلك في المدينة او القرية، داخل المعركة أم خارجها ، بطولات نسائية فلسطينية لا حصر لها. تعبر عن نفسها باشكال والوان مختلفة من الكفاح والتضحيات ، والقافلة تسير .. تتقدم .. تزرع الشهيدات الخالدات في قلب الوطن مشاعل تتوهج في الطريق . تزرعهن جنبا الى جنب مع الخالدين من شهداء هذا الوطن .

باقات من ازهار الربيع ، صبايا يتصوفن في عشق الوطن ، لينتهي بهن المطاف الى الاندماج في احشاء ارضه والاتحاد بجسدها الاخضر المضمخ بالعطر الثوري . اولئك الصبايا الضحايا ستظل اسماؤهن تشع ولن تفلت من ذاكرة تاريخ فلسطين الحديث .

كل واحدة منهن انما هي فرد من مجموعة الشعب الفلسطيني ، لا ينفصل دورها النضالي عن دور الرجل المناضل ضمن هذا الشعب الحرّ . المعطاء . لقد ظل الجود بالنفس جزءاً من حياة الانسان

الفلسطيني، لابل هو منطق حياته ومعناها وقيمتها عبر رحلة العذاب الطويلة داخل الزمن الصعب . وهو في المواجهة الصعبة مع ازمة وجوده، لايجد بين يديه وسيلة افضل من حياته ليتخذ من هذه الحياة فرصة للسعي الى الخلاص والحرية وانتزاع الوطن من فم الحوت .

فمن خلال الجمعيات النسائية ، ومن خلال قنوات الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية والاتصال المباشر بلجنة التوجيه الوطني التي اخذت على عاتقها قيادة نضال الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع عام ١٩٦٨ ، انخرطت المرأة الفلسطينية في حركة المقاومة ، وبسبب صلتها بحركة المقاومة وقيامها بتحريض الجماهير والمظاهرات والاعتصامات احتجاجاً على الممارسات القمعية التي كانت تقوم بها السلطات الاسرائيلية ، صار اعتقال الكثيرات من مختلف مدن الضفة والقطاع ، وبلغت تلك الممارسات أوجها حين شرعت السلطات تقوم بعملية النفي والإبعاد لنشيطات الحركة فتنتزعهن من بيوتهن لتلقي بهن وراء النهر الى الضفة الشرقية . في هذه المرحلة كانت الشهيدة شادية ابو غزالة . ضحية لأول عمل مسلح قامت به المرأة الفلسطينية . وذلك حين تفجر اللغم بين يديها فيما هي تحاول توقيته . وبعدها سقط الكثيرات في ساحة المقاومة الشعبية الضارية .

منذ الايام الاولى لسقوط الضفة والقطاع في براثن الاحتلال ، صار تهجير الكثير من سكان بعض القرى : قلقيلية ، حبلة ، زيتا ،

عمواس بيت يالو ، بيت نوبه ، وفتحت المدن الكبيرة صدرها لأولئك المهجّرين ، حيث اخذ نساء المدن يمارسن نشاطهن الفعال من اجل تأمين الغذاء والماء والكساء والفراش لأهالي القرى ، الى ان تمكن بعضهم من العودة الى قراهم ، اما سكان القرى الاخرى : عمواس ، بيت يالو ، فقد ارغمتهم السلطات على الرحيل الى الضفة الشرقية بعد ان نسفت قراهم واستولت على جميع اراضي تلك القرى .

كما قامت المرأة في الضفة الغربية بمسح اجتماعي شامل لقرى الضفةالغربيةمما مكّن من تجميع المعلومات وتقديم الارقام الصحيحة للصحفيين عن البيوت التي نسفت والتي احرقت، وعن العائلات التي شردت واصبحت بلا مأوى او معيل ، وامكن ايضا من خلال تلك الحقائق جمع المعونات لهذه القرى من خارج الضفة من جمعيات عالمية سارعت كلها للمساعدة بعد نشر المعلومات الدقيقة مما أعان على دعم الصمود .

* * *

رسالة تسربت من السجن كتبتها على ورقة كلينكس رندة النابلسي الى شقيقتها

شوقي اليك اعظم من ان يوصف ، انني افتقدك كثيراً وأحنّ الى جلساتنا سوياً ، ولا يعزيني سوى ان ما نحن فيه كان متوقعاً ويفرضه علينا الطريق الذي مشينا فيه.التحقيق كان غاية في الوحشية والمحققون لا يمتون الى البشرية بصلة.لقد ذقنا الكثير هنا،وجلدنا بالسياط وضربنا

بالحائط،وشدّ شعرنا،وخلعت عنا ملابسنا الخارجية،تصوري ان يد نعمت شُلّت مؤقتا وأسعفت في المستشفى ،وآمنة كانت تمشي بصعوبة من الضرب بالسوط،وكذلك كانت آثاره على أجسام فيحاء وسهام . أما بالنسبة إلي فقد تجمعت بقعة دم في عيني اليسرى كما أصبت بنزيف في انفي،وما زلت آخذ العلاج الى الان حتى تحولت معدتي الى خزانة صيدلية.لم يكن الضرب سبب انهياري في التحقيق،بل كان بسبب ادعاء الاخرين واعترافاتهم بأشياء هامة،بالاضافة الى حالة اللاوعي التي مررت بها .

لقد اخذوني وسهام للمسكوبية في القدس وانتهى التحقيق مع سهام . أما أنا فلم ينته معي بعد . غاليتي ان حقدي الان اكبر من اي وقت مضى . انه لمن المهين ان يركلك همجي منهم بقدمه وانت مطروحة على الارض تتلوين من الالم ، او يجلدك بسوطه متلذذا بـذلك . لقد أشعلوا فتيل حقدنا . انني الان على ابواب الذهاب الى المسكوبية مرة اخرى ، وانا مدركة تماماً لما ينتظرني هناك . انني اشد ما اكون تصميما على التحدي ، ويقيني انكم معي بقلوبكم . لقد صنع مني السجن والتعذيب رندة اخرى اعمق من الاولى واكثر تجربة ، لامكان لديها للأشياء السخيفة والسطحية التي كانت تربطها الى حد ما ببقية المجتمع . احس في اعماقي بثورة وفي داخلي غليان لا ينقطع ، وكثيراً ما تجتاحني رغبة عارمة في ان اقتل شخصاً ما ، وغالبا ما يكون هذا الشخص هو سجانتي (روني) وهي اقذر سجانة هنامبصراحة اذا

قدمنا للمحاكمة قد احكم عشر سنوات ، او في حدود هذا ، لكن هذا لا يترك اي انطباع في نفسي سوى انني سأحرم من عدة اشياء حبيبة ، بالاضافة الى التجمد المخيف الذي سأواجهه (ولكن بدون اي نوع من المجازات) . انني أحسّ نفسي في كل مظاهرة ومع كل شخص يرمي الجنود بالحجارة . احس نفسي تهفو الى المظاهرات وضجيجها واليكم جميعاً . أختي انني احبكم من صميم قلبي واعماقي . احس الان بانني شعلة عواطف متأججة بحب الناس والارض ونابلس بكل شوارعها وبيوتها وغرفتي في البيت وكل ذكرياتي فيه . علمت انهم قاموا بقياس بيتنا تمهيدا لنسفه . وانت اعلم الناس بمقدار حبي له وللذكريات الغالية التي تربطني به . ولكنني ادرك تماما انه ليس بكثير على ثورتنا ان نضحي ببيوتنا من اجلها . وكنت اتمنى ان اكون قد فعلت شيئا يستحق او يستدعي ان ينسف البيت من اجله . في غرفة السجن مجموعة لطيفة من الفتيات ننشد دائما : يا ظلام السجن خيم الخ .. ، اتذكرك واتذكر ضحكنا في الليل على (جورج وجورجية) وغير ذلك ، اشعر وقتها ان تلك الفترة من حياتي قد انسلخت عني واصبحت مجرد ذكرى عزيزة وحيّة . بالنسبة لك فقد سئلت عنك احدى الاخوات هنا فانكرت معرفتك ، لذلك لو حصل شيء فنحن جميعا ندرك جيدا ان لاصلة لك بنا الا الصداقة التي تربطك بي اضافة الى العلاقة العائلية ، ان الصداقة التي تربطني بك هي من الاشياء التي اعتز بها وسأبقى فخورة بها الى الأبد .

رندة

قصيدة مهداة الى رندة

«من مفكرة رندة»

في نصف هذا الليل .... آه

حذاؤه يدق في الدهليز ... آه

مبتدع التعذيب آت

آتٍ وتدنيني خطاه

من زمن الكابوس والجحيم والصراع

حذاؤه يدق في الدهليز

دمي يدق وعروقي والنخاع

• • •

توحشي ما شئت يا

شراسة الاوجاع

توحشي ، توحشي

فلن ينز من دمي جواب

١٩٦٨

من مفكرة « هبة » شقيقة رندة ، سجينة عمرها خمسة عشر عاما :

يحوم هنا طيف أمي ، يحوم

تشعّ بعينّي جبهة أمي كضوء النجوم

عساها تفكر بي الان .. تحلم

• • •

قبيل اعتقالي

رسمت حروفاً على دفتر

جديد عتيق

رسمت عليه وروداً

روتها دماء العقيق

وكانت بجنبي أمي

تبارك رسمي ..

• • •

أراها

على وجهها الان صمت ووحدة

وفي الدار صمت ووحدة

حقيبة كتبي هناك على رفّ مكتب

ومعطف مدرستي عالق فوق مشجب

ارى يدها الان تمتد ، تنفض عنه الغبار

اتابع خطوات أمي

واسمع تفكير امي

اتوق الى حضن امي ووجه النهار

١٩٦٨

(٢٢)

منذ عام ١٩٧٦ شرعت « اللجنة الثقافية » الايطالية بمنح جوائز سنوية لعدد من الشعراء والكتاب من ايطاليا ومن بلدان البحر الابيض المتوسط . واللجنة الثقافية الايطالية مؤلفة من نخبة من الادباء والمستشرقين والنقاد الايطاليين .

كان هدف اللجنة تعميق العلاقات الثقافية وتوثيقها بين دول المنطقة المتوسطية ومنها البلاد العربية ، ايمانا منها بكون العلاقات الثقافية والمحبة والاحترام المتبادل والتفاهم انما هو الاساس في استقرار الدول والشعوب مما يثمر الخير والسلام للانسانية كافة .

منحت جائزة « الزيتونة الفضية » لأول مرة عام ١٩٧٦ لعدد من الكتاب والشعراء من حوض الابيض المتوسط ، وقد نالها يومئذ توفيق الحكيم . وفي عام ١٩٧٧ نالها من العرب نزار قباني و د، عيسى الناعوري . والايطاليون يكنون للاستاذ الناعوري تقديرا كبيراً لعمله

الدؤوب منذ زمن طويل على تعريف الايطاليين بالشعر العربي المعاصر وتعريف العرب بالادب الايطالي الحديث عن طريق ترجمة الأعمال الأدبية والشعرية في اللغتين .

في عام ١٩٧٨ نلت شرف منح الجائزة ، نلتها على اساس (شاعرة لها قضية) . تولى مكتب الجامعة العربية في روما نشر قصائدي المترجمة في كتاب وزع في حفلة توزيع الجوائز التي تقام عادة في دار الاوبرا في مدينة « بالرمو » الايطالية . فقد حرص مدير مكتب الجامعة يومئذ الاستاذ محمد صبرا على ان تصدر المجموعة الشعرية قبيل الاحتفال بتسليم الجائزة ، وتوزع اثناء الاحتفال على الجمهور المحتشد في دار الاوبرا لهذه المناسبة .

قدم القصائد عميد المستشرقين الايطاليين الاستاذ فرانتسكو غبريالي بقوله : « انها قصائد محرقة من اجل ارضها السليبة وشعبها المهان المضطهد » . الجائزة عبارة عن شهادة تقدير ومبلغ نقدي مقداره ما يعادل الف دينار . ولقد نزلت في ضيافة « اللجنة الثقافية » . وكانت لي لقاءات مع الجمهور الايطالي في باليرمو ، ثم في معهد الدراسات الشرقية في روما حيث التقيت ببعض المستشرقين والطلاب الايطاليين الذين يدرسون اللغة العربية وآدابها المعاصرة .

عدا عن معهدي الدراسات الشرقية في روما وفي باليرمو ، هناك المركز الثقافي العربي في روما ومديره الدكتور فتحي مقبول من شباب

فلسطين المقيمين في ايطاليا ، ويقوم بتدريس اللغة العربية للايطاليين في المركز الثقافي العربي الي جانب تدريسه في جامعة نابولي .

هناك عدد كبير من الشبيبة الايطالية تعكف هذه الايام على تعلم اللغة العربية وكما نعرف ، يتعلم المرء عادة لغة غير لغته لاسباب ثقافية او تجارية حضارية ، ولا ننسى اهمية العالم العربي في العالم في هذا العصر، اقتصادياً واستراتيجياً .

في لقائي مع صحيفة « جورنالي سيسيليا » سألني المستعرب البرفسور ريتسيتا تو قائلاً : انت مسلمة وقد كتبت بعد الاحتلال قصيدة الى السيد المسيح في عيده . لماذا الى السيد المسيح ؟

قلت : اولاً نحن المسلمين نؤمن بنبوة المسيح . ثانيا ، كان السبب في كتابتها كون السيد المسيح اول فدائي شهيد فلسطيني ! .

لم تكن هذه اول مرة يترجم فيها شعر فلسطيني الى اللغة الايطالية . ففي عام ١٩٦٩ كان الاستاذ الناعوري قد قام بترجمة اربعين قصيدة من شعر الرفض والمقاومة للشعراء توفيق زياد ، سميح القاسم ، محمود درويش ، فدوى طوقان جمعت كلها في كتاب بعنوان (قصائد من نار ودم) وقد طبع من الكتاب ثلاث طبعات متلاحقة ، حتى عام ١٩٧٠ بفضل مكتب الجامعة العربية في روما ، ثم أُعيد طبعه مرة

رابعة عام ١٩٧٣ بمبادرة من الاستاذ محمد صبرا مدير مكتب الجامعة آنذاك .

بعد ذلك ظهرت دراسة لشعر المقاومة الفلسطيني كتبها المستشرق الايطالي الشاب جوفاني كانوفا في مجلة الشرق الحديث « اورينت مودرنو » في روما . كما اصدر هدا المستشرق دراسة حول فدوي طوقان وسلمى الخضراء الجيوسي ، مع ترجمة لعض قصائدهما ، قام هو بانجازها .

من المؤكد ان الشعر ، بين مختلف اشكال التعبير الادبي ، هو اشدها استعصاءً على الترجمة ؛ الشعر يفقد الكثير من وهجه حين يترجم الى لغة اخرى . هذا الوهج الذي ينبعث من اللفظة بالذات . الالفاظ ليست وعاء لنقل الافكار فقط . ففي اللفظة الواحدة ، عدا عن المعنى العقلي الذي تحمله ، يحتشد قدر كبير من المشاعر والاصداء والظلال التي يصعب نقلها في الترجمة ، اذ تكون محملة بتراث متراكم من تجارب الامة ومشاعرها المخزونة وذكرياتها . ولنأخذ مثلا كلمة (الارض) . هذه الكلمة حين يتعامل معها الشاعر الفلسطيني ، تجيء محملة بالدلالات والايحاءات والمشاعر والصور والمعاني الخاصة بنا نحن الفلسطينيين ، والمترجم الناجح هو الذي يقوم بعملية امتصاص للمشاعر والزخم الوجداني في القصيدة ، ثم يسكب هذا النسغ ، الذي هو روح الشعر ، في اللغة الاخرى ، اما اذا كانت الترجمة

مجرد نقل حرفي للمعاني العقلية للالفاظ فان القصيدة تموت في الترجمة .

كان من اكثر اللقاءات إثارة بالنسبة لي زيارة قمت بها للصحفية الايطالية كريس . حين دخلت بيتها جذبني ما يعكسه من أناقة وذوق رفيع . وحين هتفت : ما أجمله من بيت ! قالت : تعالي معي لأريك أجمل ما في بيتي . فماذا رأيت ؟ هذا جدار علّقت عليه لوحتان فنيتان تظهر في كل منهما خريطة معدنية لفلسطين احداهما بالمعدن الاصفر والاخرى بالمعدن الفضيّ ، والخريطتان ملصقتان على خلفيتين من المخمل الاسود والاحمر .

على جدار اخر ملصقات فنيّة يمثل كل منها رمزا او معنى يشير الى القضية الفلسطينية .

وهناك ، من خلال إطار معلق على احدى الزوايا ، أطلّ عليّ وجه الشهيد الفلسطيني وائل زعيتر الذي سقط شهيدا في احد شوارع روما في ليلة مظلمة .

لم اتمالك دمعة نفرت من عيني ، شعرت بتأثر شديد .. شعرت اننا لسنا وحيدين في هذا العالم الرديء ، فهنا ، في هذا البيت ، لمست بيدي ورأيت بعيني عالمية القضية الفلسطينية ، وصدق تضامن الشرفاء ، اصحاب الضمائر الحية مع الفلسطينيين .

قالت لي كريس وهي ترى دموعي تفيض بها عيناي : لستم وحدكم يا فدوى . لقد اصبح واضحاً للعالم ان قضيتكم هي قضية تحرير وطني ، قضية شعب يتطلع الى نيل حقه المشروع في حياة حرة كريمة ، وتحدثنا طويلا طويلاً ...

في حفلة العشاء الوداعية التي اقيمت في بيت رئيس اللجنة الثقافية عرفوني بالرسام الصقلي « بيبو مادي » قدموه لي على أنه فنان يشجب العنف ويرفضه، دعاني هذا الرسام الى زيارته لمشاهدة رسومه، وكنت سأسافر الى روما في صباح اليوم التالي ، فاعتذرت اليه. ثم سألته: ترى ما هو البديل للعنف الذي يمكن ان يتخذه شعب اغتصبت ارضه واصبح يواجه خطر الاقتلاع من الجذور وفقدان الهوية الوطنية ؟

اجاب بلهجة قاطعة : أنا ضد العنف في كل الاحوال ..

قلت : كيف كانت ردة الفعل لدى الشعوب التي احتلت النازية أراضيها ؟ هل كان هناك بديل للمقاومة المسلحة ؟ ان وقف العنف بأي ثمن يعني تنازل الشعب عن حريته واستقلاله اللذين يشكلان عصب الحياة لدى اي شعب من شعوب العالم . وان العنف ليس ظاهرة مرضيّة على الدوام ، فهو في بعض الاحيان ضرورة تاريخية ، وهنا يمكن ان نفهم الثورات الكبرى في تاريخ الانسانية .

ثم اكدت له ان العنف فرض فرضا على الانسان الفلسطيني

الذي يناضل من اجل بقائه . ترى من هو المسؤول عن ترسيخ ف
العنف في ميدان الحركة ، حركة مقاومة الاحتلال ؟ ان تنامي العن
السياسي في فكر المنظمات السياسية الفلسطينية هو وليد موقف اسرائ
والاتجاه التوسعي في الفكر الصهيوني ، واقتلاع الشعب الفلسطيني م
جذوره .

وذكرت له ان هناك اغنية اسرائيلية شائعة تقول : « ان الدبابات ستأتينا بالسلام » . فاسرائيل قامت على العنف منذ البداية ، ولكن العالم نسي هذه الحقيقة .

ان السلام مطمح كل انسان بل هو حلم الانسانية الموروث الكامن في اغوار كل نفس . ولكن حين يكون هناك واقع أليم فان العنف يعكس هذا الواقع بكل ما فيه من تشرد وشقاء وهذا هو المبرر الوحيد للعنف . انها قضية ان نكون او لا نكون ، وحين شعرت انه لا حياة لمن تنادي . ادرت وجهي لأدير حوارا مع الجالس الى يميني .

(٢٣)

كانت قد ظهرت على السطح صورة وهمية من الهدوء غشت المناطق المحتلة . اما تحت السطح ، وفي العمق البعيد ، فقد كان هناك تيار بركاني يتحرك بصمت دون ان يحس به المحتل المتخايل بقوته وجبروته.

قبل الانتفاضة بزمن ، احتل « فريدي زاخ » مركزه حاكماً عسكرياً لمدينة نابلس . وكان من عادة كل حاكم جديد استدعاء بعض اهل المدينة للتعرف عليهم واجراء حوار معهم يجس من خلاله نبضهم.

وقد كنت مع الجماعة التي التقت به في ضحى احد الايام ، اتذكّر منهم السادة حاتم العنبتاوي ، هاني ابو غضيب ، حافظ طوقان . محمد عميرة وسواهم ممن لا اتذكر اسماءهم .

بادرني الحاكم العسكري بالسؤال قائلاً : ما رأيك في الهدوء الشامل منذ ستة اشهر ؟

قلت : مرفوض وممجوج ، القمع هو سبب الهدوء . لا تصدق من يقول لك ان الناس سعداء بهذا الهدوء فيما المستوطنات تقام ، والارض تنسحب من تحت اقدامنا .

وحين تطرق الى موضوع قصائدي والحرية التي « أتمتع » بها في قول الشعر تحت الاحتلال ، ذكّرته ان الرقابة العسكرية تمنع نشر قصائدي وتصادر دواويني عبر الجسر .

ثم طرح عليّ هذا السؤال : لماذا لا تتشكل زعامة من سكان الضفة والقطاع ، لا من المنظمات في الخارج ، وتقوم بالتفاوض ؟

قلت : ان المنظمات تتكون من فلسطينيين هم اخوتنا وابناؤنا . ان « بيغن » يصر على فكرة الارض الاسرائيلية ، واعتبارنا مواطنين اردنيين عليها . ماذا تستطيع الزعامة هنا ان تنتج ما دام السادات لم ينتج شيئا حتى الآن بالنسبة لنا ؟ قال : لقد تنازلنا له عن سيناء وهذا انجاز كبير . قلت : سيناء خالية من البشر . أما هنا ، فإن حوالي مليون ونصف المليون من سكان الضفة والقطاع ، يرزحون تحت الاحتلال ، اضافة الى كون المستوطنات لا تزال تقام لتهويد الأرض العربية ، ناهيك عن مصادرة الاراضي ومنابع المياه .

قال : ما رأيك في الحكم الذاتي ؟

قلت : انه صيغة جديدة لكلمة « احتلال » ولا يغيّر من الواقع

المرفوض شيئا . الحكم الذاتي يعني اننا رعايا اردنيون يقيمون على ارض اسرائيلية . هنا سأل : هل يسركم دخول الجيش الاردني الى الضفة بدباباته ؟ قلت : نعم ، وحبذا لو يتم ذلك . ان الاردنيين اخوتنا ونحن اسرة واحدة مهما اختلفنا .

قال هل تفضلين دولة اتحادية ام دولة فلسطينية ؟

قلت سواء لديّ أكانت هذه أم تلك ، الاكثر اهمية هو الخلاص من الاحتلال .

قال : الا ترين انه احتلال مريح ؟

قلت : لن يشعر انه احتلال مريح من يمّر بتجربة الجسر وحدها . حيث الاذلال والتعري من الملابس والسير حفاة بلا أحذية . ناهيك بمصادرة الكتب والمطبوعات الاخرى ، والتعامل الفوقي المتغطرس .

• • •

وتمر بضعة شهور على هذا اللقاء . تلتهب بعده الشوارع بالأحجار ! مناجل الموت تنشر رائحة الدم المتصاعدة ، وسحاب الدماء الفتية يمطر ويمطر .. ترتعش الارض مع وقع المطر الاحمر ، يتساقط الشباب كالنجوم ، وجوههم نحو الاعداء وايديهم ممتلئة بالحجارة والرفض والاصرار . على كتف الوطن يسندون رؤوسهم ، وفي نهر

الصمت والموت يغرقون ، ليقوم بعدهم آخرون وآخرون وآخرون بلا انتهاء.

مواجهة لا توازن فيها ، جنود مدججون بالاسلحة ، ومواطنون عزل الآ من الحجارة وحب الوطن والتصميم على الصمود . ممتلئون بالحياة والحيوية . تحمل وجوههم الجميلة مأساة المعاناة تحت الاحتلال .. اطفال سرق العسكر منهم طفولتهم ، فتية يافعون يبحثون عن مستقبلهم فيما هم يعيشون حقيقة الموت كل يوم ، كل ساعة .

وهكذا ، تدخل الكلمة (الانتفاضة) قواميس اللغات الحية العالمية . لقد كانت ظاهرة غير مألوفة ادهشت العالم وايقظت فيه الضمائر .

انتشر الصوت الرافض في وادي هذا العالم ، ولم تأت الانتفاضة من فراغ . كانت أهم حدث في التاريخ الفلسطيني وفي الصراع العربي الاسرائيلي . وظلت قيمتها معنوية اكثر منها سياسية ، واذا كان قادة اسرائيل ما انفكوا يوهمون الشعب اليهودي بانها تهدف الى تدمير اسرائيل والقضاء عليها ، فالحقيقة تقول انها لم تكن الا من اجل استرجاع الحرية والكرامة ، وبهدف التخلص من الاحتلال وما لحق بالانسان الفلسطيني المسحوق من ظلم وقمع .

قال لطيف دوري سكرتير لجنة الحوار الاسرائيلي الفلسطيني :

« لا شك في ان للانتفاضة الشعبية قسطا كبيرا في تحقيق الانقلاب التاريخي ، إسقاط حكومة الليكود برئاسة شامير بعد خمسة عشر عاما. فقد اثبتت الانتفاضة خلال سنواتها الخمس ومازالت ، ان استعمال مختلف اساليب البطش والتنكيل ضدها لم تفلح في اخمادها ، وبأن الطريق الوحيد هو اسقاط هذه الحكومة المتعنتة وتغييرها بحكومة جديدة ، باشتراك احزاب اليسار ، لكي تتوصل الى السلام العادل المبني على اساس اعادة المناطق مقابل السلام وانهاء الاحتلال البغيض بأسرع ما يمكن » .

هذا ما صرح به لطيف دوري تعقيبا على نتائج الانتخابات في اسرائيل . واضاف « بأن اوساطا واسعة من الطوائف اليهودية الشرقية التي ايدت الليكود تفهمت في الاشهر الاخيرة ان حكومة شامير لن تحل مشاكلهم المستعصية كالبطالة والمسكن لانها تقوم بدلاً من ذلك بتبذير مئات الملايين من الدولارات على الاستيطان في المناطق المحتلة » .

« ملحق صحيفة صوت « مبام » يوليو ١٩٩٢ »

لقد كانت الانتفاضة ثورة شعب بكافة فئاته ، اطفال ، فتية يافعون شباب ناضجون ينظمون الاضراب والمواجهات مع الجيش . امهات وتلميذات ، كم سقط منهن على ساحة النضال وهن يواجهن بشجاعة جنودا مدججين بالاسلحة المتطورة .

ساعدت الانتفاضة على تغيير المجتمع من الناحيتين الايجابية والسلبية ، توطدت معها المشاركة الوجدانية التي ربطت الناس بعضهم بالبعض الاخر . هذه المشاركة التي تنشأ عادة لدى مواجهة المخاطر التي يحسها الناس من العدوان الخارجي الذي يقوم به العدو المشترك ، حفلات الاعراس الصاخبة التي كانت تقام على انغام الموسيقى الصاخبة ، تحولت الى حفلات متواضعة صامتة . خالية من مظاهر البذخ والاسراف والترف ، هذا الى تغيرات ايجابية اخرى كانت كلها مؤشرا الى تغيرات نوعية في مفاهيم المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال .

أما اشد النواحي السلبية خطورة فهو اغلاق المدارس والجامعات من قبل السلطات الحاكمة . مما دفع وزير الدفاع الاسرائيلي الى القول بان مردود الانتفاضة على اسرائيل ، هو مردود خيّر وجيد ، حيث اسهمت هذه الانتفاضة في خلق جيل فلسطيني اميّ غير متعلم . وهذا يذكرنا بمقولة (لوبراني) الرهيبة : يجب ان نجعل من كل عرب اسرائيل حطابين وسقاة ماء .

كان اتساع نطاق الاضرابات الشاملة وعنف المقاومة قد اشار الى وجود قيادة موحدة توجه النضال في الضفة والقطاع وتنظم مساراته . هذا الواقع ملأنا بالامل . قلنا : لا التشنج الصهيوني ولا اتفاقات كامب ديفيد بقادرين على تغيير هذا الواقع . فقد تحولت المقاومة الشعبية الى

تمرد شعبي عنيف ، لابد من ان تؤول معه تشريعات اسرائيل لضم الضفة والقطاع الى الفشل .

بطولات ، تضحيات ، مئات القتلى والجرحى والمصابين السلطات تأمر بدفن جثة الشهيد في الليل او اثناء منع التجول خوفاً من هيجان الشعب – السلطات لا تسمح بحضور الجنازة الاّ لعدد قليل من ذوي الشهيد .

ذات ليلة ، حملت المنظار المكبر ووقفت اراقب من خلال النافذة عملية دفن جثة احد الشهداء التي جرت على ضوء (لوكس) كان يحمله احد ابناء عائلة الشهيد . مع انتهاء العملية اخذت افراد العائلة تتراجع تحت الظلام عائدة الى مخيم عين بيت الماء حيث تقيم .

أطلت الوقوف والنظر من خلال المنظار المكبر الى تلك البقعة الموحشة التي رقد تحت ترابها الفتى الشهيد وقد انزرع فوق رأسه حجر ابيض شاهداً على الضريح الترابي .

تعذر عليّ النوم الاّ بعض غفوات متقطعة ، كنت اصحو بعدها وفي قلبي شعور غامر بالحنان والشجن ، وفي عينيّ صورة تلك البقعة الموحشة وذلك الشاهد الابيض المغروس في تراب حفرة الشهيد الفتيّ .

(١)

رسموا الطريق الى الحياة
رصفوه بالمرجان ، بالمهج الفتية بالعقيق
رفعوا القلوب على الاكف حجارة ، جمراً ، حريق
رجموا بها وحش الطريق :
هذا أوان الشدّ فاشتدي .. ودوّي صوتهم
في مسمع الدنيا واوغل في مدى الدنيا صداه
هذا «أوان الشد»
واشتدت .. وماتوا واقفين
متوهجين على الطريق
متألقين كما النجوم ، مقبلين فم الحياة

(٢)

انظر اليهم في البعيد يعانقون الموت من اجل البقاء
يتصاعدون الى الاعالي ، في عيون الكون هم يتصاعدون
وعلى حبال من رعاف دمائهم
هم يصعدون ويصعدون ويصعدون
لن يمسك الموت الخؤون قلوبهم
فالبعث والفجر الجديد
رؤيا ترافقهم على درب الفداء
انظر اليهم في انتفاضتهم صقورا –
– يربطون الأرض والوطن المقدس بالسماء !

(٢٤)

مع مؤتمر مدريد امتد خيط ضوئي امامنا ، فرحنا به ، وعقدنا عليه امالنا وأحلامنا .

وتمر سنة كاملة ، تجري خلالها جولات عديدة منفصلة دون الوصول الى أيّ اتفاق ، لقد ظلت مسارات التفاوض العربية الاسرائيلية تتعثر مع عدم تحقيق شيء .

يا له من نفق مظلم ، اختنق فيه ضوء الامل ؛ المفاوضات لا تزال تراوح في مكانها ، ولا وصول الى نتيجة ، ونحن نغوص ونغوص في مستنقع اليأس والتشاؤم . اما من نهاية لتخبطنا في خضم القلق الكبير ؟ ام كيف الخلاص من صخرة سيزيف الرابضة فوق ظهورنا ؟ والى اية هوة نحن سائرون عبر هذا الواقع المتأزم في زمن اختل فيه التوازن .

المحتلون يؤكدون لانفسهم وللعالم ان الارض باقية وهي لهم ، وهي ارضهم الموعودة ... ونحن نقاوم ، نرفض الخضوع والتراجع امام شراسة القوة المضادة المعادية ، ويظل العنف الذي تلجأ اليه المقاومة ضرورة تاريخية لاسترجاع الارض وعودة الفلسطيني الى بيته وشجرته وحقله والارض التي اقتلع منها بالقوة والعنف والظلم .

الى متى يظل هذا الفلسطيني واقفاً عريانا تحت الشمس ، لاسقف يظلّه ، ولا ارض تقلّه .

في كتابه (الهواء الاصفر) يتساءل ديفيد كروسمان ، وهو يهودي ينتمي الى شجرة الانسانية ، بل هو فرع من فروعها : ما العلاج ؟ واين المفر ؟ كيف يمكن انقاذ القاتل والمقتول المتواجدين في سجن واحد ؟

الحل لدى الكاتب ، الحل الذي لا قبله ولا بعده ، هو « الحل الانساني » ، ان يكون الانسان انساناً ، وبحثا عن هذا الحل ، يبحث في فلسفة الفيلسوف الفرنسي البير كامو المعروفة بالوجودية الانسانية ، فهذه الوجودية تدعو الى تحقيق الحرية للانسان ، والعمل على حفظ انسانية الانسان بعيداً عن الفلسفة العنصرية التي تتعالى على الانسان ، ولا تعترف بانسانيته من هنا فانه يهون عليه قتله وتشريده وهدم بيته وتعذيبه تعذيبا لا انسانياً عند كل منعطف ؛ وهي تضغط على اعصابه طول

الوقت ، وبصورة تشبه اللعنة ! فتفقده عمله وحياته وانسانيته او هذه جميعاً [1] ترى هل يقرأ زعماء الصهيونية ديفيد كروسمان وامثاله من الكتاب الانسانيين المتحضرين ؟! .

على كل الاحوال لابد من ان ينفجر الصبح من الليل . ان صوتاً ينبعث في أعماقي من تحت رماد الاحباط والخيبات المتتالية هاتفاً بي : حين يختلّ التوازن ويتحطم ، وحين يستشري صانع الدمار ، يوقظ فينا الحركة ، ويبعث في الانتفاضة التاريخية النضارة والخصب . وهنا تستحضر ذاكرتي مقولة هيرقليطس قبل خمسة وعشرين قرناً : « ان الحقيقة هي التغير ، وكل شيء يحمل ضده ، فالوجود والعدم معاً في كل شيء ، وما من شيء الا وهو في حالة انتقال دائم » .

إن شعبا ظل على مدى عقود طويلة يمارس النضال بحثا عن حريته ، واصراراً على استرداد وطنه الضائع دون يأس او تراجع ، لهو بحق شعب فوق الفناء ، فوق الاندثار ، هذا ما تؤكده حركة التاريخ.

---

(١) (الانتفاضة – المسيرة وآفاق المستقبل) تأليف د ، علي سعود عطية

أسماء ومواقف

(٢٥)

حين التقيت به بعد الغياب الطويل ، غمرتني رحابة البهجة التي يشعر بها المرء حين يفاجأ بلقاء غائب عزيز ، ظل له حضوره الدائم في الوجدان ، رغم البعد الجغرافي والبعد الزماني .

التقيت به في بلد عربي بعيد ، في تونس التقيت به . الله الله يا محمود ؟ منذ سنوات بعيدة ما التقينا ، ولا تحدثنا ، منذ سنوات بعيدة ما سعيت الى سفح الكرمل لألقاك هناك في غرفة التوقيف الصغيرة.

غمرتني فرحة اللقاء بما يشبه الشجن .

في ذلك اللقاء الاول ، بعد غيابه عن عيني تلك السنين الطويلة ، كانت تدور على خشبة مسرح اللامعقول والعبث العربي في زمننا العربي الساقط ، كانت تدور مسرحية اتهام منظمة فتح بقتل الفنان الفلسطيني الراحل المرحوم ناجي العلي ، والتهديد بقتل محمود درويش

اخذاً بالثأر ، مما حدا بالمسؤولين من احبابه الى استدعائه من مكان اقامته في باريس ليستقر في مدينة تونس محاطاً بالحرس حفاظاً على حياته الغالية . وذات مساء ، وعلى مائدة العشاء دار الجدل بين محمود ومحبيه حول رغبته في العودة الى باريس لقضاء بعض شؤونه هناك وفي الحوار الدائر بين الطرفين ، وفي محاولة محمود اقناع الطرف الاخر بالسماح له بالمغادرة قال : لا داعي لهذا الخوف ، فقد اخبرني قارئ الكف بانني سأعيش طويلاً . هنا شعرت بتأثر عميق . شعرت بمثل الحنان الذي تكنّه الأم لولدها ، واصطنعت وضعاً أخفي فيه دمعة امتلأت بها عيناي . يا للشاعر ، الطفل الكبير ! ما اصدق المقولة التي تؤكد بأن الطفل يظل قابعاً هناك ، في اعماق الشاعر مهما مرت عليه الايام بحوادثها وخبراتها .

بعد حوالي ثلاثة اعوام فرحت بلقائه الثاني في قصر الثقافة بعمان، حيث دعته مؤسسة شومان لاحياء أمسية شعرية هناك .

ثلاثة آلاف من مريديه وعشاق شعره حبسوا انفاسهم حين جاءت اللحظة ، لحظة اعتلائه المنصة . وامتشق محمود حضوره المتألق في ذلك الصمت الشامل ، وتعلقت به الأبصار .

وقف جميلاً جميلاً كصورة حية نابضة لأبولو إله الشعر والموسيقى والجمال ؛ ابولو فلسطيني وقف بكل خصوبته الشعرية ينشد روائع شعره، فتعدو به القصيدة كحصان عربي اصيل . ومضى في

تجلياته الشعرية ممتلكاً قلوب مستمعيه ، كل قصيدة هي قطعة من نفسه ، هي حصيلة لحظة غنية من لحظات حياته المليئة العريضة التي يحياها في المنافي البعيدة ، عصياً على الانحناء ، عصياً على الاستسلام . كل قصيدة تحمل طعم حياته وطعم وطنه البعيد القريب الذي يحمله هذا الشاعر العظيم في داخله . شاعر متدفق يملك شعره طاقة عجيبة ، وحيوية دافقة بشكل مذهل . شاعر فلسطيني تنبع قوة شعره من قوة روحه المناضلة ، فتأخذنا قصائده برحابة فضاءاتها وثراء لغتها الى عالم الدهشة ، الى مناطق الشعر الحقيقي الخارج على المألوف العاديّ والمكرر ، شعر مستقل عن المنطوق المعجميّ بما يحمل من الدلالات والرموز الموحية الفنية، وبما يحمل من خصائص محمود الشاعر ، الرافض ، المتحدي ، المتشبث بحقه وبحق شعبه في الوجود والبقاء .

في تلك الامسية التي لا تنسى طلب منه المستمعون انشاد قصيدته العاصفة « عابرون في كلام عابر » ، تلك القصيدة التي هزّت اعصاب المحتلين ، وكما نعرف جميعا ، يظل محمود يحيي الشعر قضيةً وطنيةً مقدسة في حوار لاينتهي بين حاكم ظالم وبين حيويته كشاعر تتكدس في حقيبة قلبه صور فلسطين ، بكل تضاريسها ، بجبالها بسهولها ، ببحرها الابيض .

وحين قرأ رائعته (رب الأيائل يا أبي) وهي مرثيته لوالده الذي رحل قبل عامين ، احسسنا بوالده يحضر من وراء الزمان والمكان ،

مشتملاً بجو القرية الفلسطينية ، محفوفاً بكرومها ، وبأماسيها المشبعة بالألفة والحميمية . كما لحظنا في القصيدة تلميحاً إلى ملابسات خروجه من فلسطين وذلك حين قال لأبيه : [وذهبت وحدي كي اطل على القصيدة من بعيد] . بلى ، ونحن نضيف الى هذا قولنا إنه خرج ليبدأ مرحلة جديدة لإبداعه الشعري ، ولكي تقوى اكثر فاكثر علاقته بالوطن البعيد ، ولتصبح قصيدته المحملة بانفجاره الشعريّ شيئا مذهلاً حقاً ، مثيراً للدهشة والاعجاب ، يمتزج فيها الشعر بالفكر بالاحساس ، بشعوره بالاغتراب ، بحساسيته العميقة ، وبمنحاه الخاص به ، هذا المنحى الذي اصبح له مقلدوه ، فعلى ساحة شعر السبعينات والثمانينات ترى تأثيره الكبير على كثير من الشعراء الشباب ممن راحوا يتكئون عليه في صورهم ورؤاهم .

لقد ظل لمحمود صوته المتفرد والمتجدد باستمرار ، وظل شعره كشجرة دائمة الاخضرار تعطينا جناها الريان دائما ذا الطعم الخاص ، والمذاق الذي تختلف نكهته في كل عطاء جديد عما سبق ، ابداع تظل وتيرته تتصاعد وتتصاعد ، ولا تتراجع ابدا .

(٢٦)

استحضر ذكراها ...

خفيفة الخطى كنسمة ، دائبة الحركة ، تقفز باستمرار فوق ذلك الحاجز اللعين ، حاجز مرض القلب ، لتنطلق بما لديها من قوة ، كخطوات الحرية .

استحضر ذكراها ...

تجسيد باهر للحركة .. الحركة التي ظلت من سمات شخصيتها الاساسية ، كما ظلت انشودتها الخالدة ، تنشدها باستمرار على مدى رحلة حياتها القصيرة .

هل كانت باسمة حلاوة في سباق مع الموت ؟

بدقات القلب الواهي ، القلب الصغير الكبير ، بدقات ذلك

القلب كانت تقيس رحلة الزمن ، تصفع ساعات الوقت في سباقها مع الموت ، تلطم الحقيقة المؤكدة : احب الحياة ، اعشقها ، سآخذ منها كثيراً . وسأعطيها كثيرا .. اما الموت قبل الاوان فلا ... سوف اعيش بقوة الارادة .

هذا ما كانت تؤكد عليه باستمرار . ولكن الى متى ؟

بكل ما يحمل من طموحات واهداف واحلام تهاوى القلب بصمامه الاصطناعي ثم سكت .

كانت برعما ينمو ، وموهبة تتفتح تحت لمسات الفجر ، ومع ضربات القلب الواهي كانت تنزف وتخصب في آن واحد .

ظل الحلم دربها المفضي بها الى العمل ، العمل من اجل غدٍ اجمل ، من اجل تحرير وطن مخطوف ... كجندي مجهول كانت تعمل في معركة « الحركة » ، بلا ضجيج ، بلا ادعاء ، تنطلق في الميدان وفي قلبها الكبير كل طموحات شعبنا الفلسطيني واحلامه ، فلقد كانت جزءاً من هذا الشعب وأبنة حقيقية له ، وكان انتعاشها لا يتنامى إلا بين صفوفه .

أحببنا كتابتها بمقدار ما أحببناها ، كانت تكتب اوراقها الواعدة من منطلق التفكير الايديولوجي السليم ، والالتزام الاخلاقي الواعي ، والحس الانساني العميق في ابعد مراميه ، مما أعطى كتابتها تلك النكهة

وذلك المذاق الحاد الذي يفتح شهيتنا لقراءتها : الانتماء الى الارض الفلسطينية ، الاحتلال والقضية المقدسة ، الحتمية التاريخية ، الاممية ، مقاومة الطبقية ، مقاومة التمييز العنصري ، المساواة بين الجنسين ، الديمقراطية ورفض الاستغلال .. الخ الخ ... هذه الموضوعات كانت تملأ وجدانها وضميرها باستمرار .

وفي كتابتها كثيراً ما كانت تدمج الخاص بالعام ، والواقع السياسي بالواقع الاجتماعي ، تفعل ذلك باسلوب يمتاز بالصدق والحيوية ، وما الصدق والحيوية ، إلا الروح الحقيقية للادب والفن .

اما المناخ الفلسطيني الديناميكي المتحرك فكان المستنبت الرئيس لموضوعاتها ، تكتب من واقع الارض والشعب والزمن الصعب ...

بما امتازت به من وعي وتفتح ، ادركت اهمية الحقيقة التي تقول ان الدول تخرج عن طريق غرف الاطفال ، فالاطفال هم الجيل الآتي الذي يحدّد مصير المستقبل . من منطلق هذا المفهوم راحت تكتب اقاصيصها للأطفال بلغة بسيطة ، اليفة ، دافئة ، فتطلع بها علينا عامرة بحس الانتماء الى الارض والوطن ، وبحس المسؤولية تجاه جيل المستقبل وبنائه بناءً اجتماعيا وطنيا سليماً .

لقد كانت اللغة التي تخاطب بها اصدقاءها الصغار « لغة ام تفيض حباً لاطفالها الذين يملأون مساحة تغطي الكرة الارضية

كلها ، هذا ما قالته باسمة نفسها عن اقاصيصها وهو حق وصدق .

كان توقها الى الطلاقة الانسانية لا حدود له ، ولم يعادل هذا التوق إلا مقتها وضيقها بتوثين الأطر الاجتماعية البالية ، تلك الاطر التي تقيم من نفسها حارساً للتخلف والجمود والظلم الاجتماعي .

في احدى اوراقها تناولت الصفة الاجتماعية لحياة الاسرة الشرقية والتي نلمسها في موقف الرجل التسلطي من المرأة ، حيث العقلية لا تزال مقيدة بالمفاهيم الخاطئة فيما يتعلق « بالبنت » : [... أنام على جنبي الايسر ، فهذا الوضع يريح قلبي العليل] ولكنها تصطدم بكون هذا الوضع الذي يريح قلبها العليل فيه خروج وتمرد على التقليد الموروث ، فالتقليد يقضي بنوم البنت على الجانب الأيمن .. وها هو الأخ العتيد ينزعج امام هذا الجموح ذي الابعاد الخطيرة ، ان النوم على الجانب الايسر يعني التغيير ... يعني التطور والقضاء على الأطر الاجتماعية وعلى توثين تلك الاطر .

بمثل هذه الرمزية الشفافة التي لا تنغلق دلالاتها على فهم القارئ ، كانت (باسمة) تتناول اكثر موضوعاتها التي كانت تغترفها من معطيات الواقع المعاش على الصعيدين الاجتماعي والسياسي .

وحين كانت تتطرق الى موضوع الطبقية كانت الروح السينيكية الساخرة تغلف محتوى كتابتها : ها هي في احدى اوراقها تتناول ذلك

الثريّ الذي خلا من كل احساس وثقافة : [سيخصص في عمارته الضخمة دورا كاملاً لإدخال الطعام الى معدته واخراجه ..] .

ألا يموت بعض الناس من الجوع ، وبعضهم الآخر يموت من التخمة !

حين سرقها التشرد والسفر كان الوطن في ذاكرتها ، ظلت تتمثله بالوجدان والضمير ، تحيا معه ويحيا معها اينما طوّحت بها الأسفار. كانت ترى الارض الزمردية في احلام النوم واليقظة ، تضع أصابعها النحيلة على جدران البيوت البعيدة ، تتجول حول « الدوار » النابض بالحركة ، تنتعش بحركة الاطفال في شوارع نابلس وحواريها ، تنظر في عيون العمال والكادحين الفقراء ، تتوق الي معاشرة الجزئيات اليومية في مدينتها ، الى الاندماج في تفاصيل الحياة فيها كما كانت تفعل قبل ان يسرقها المنفى البعيد ، ليس هناك مكان في العالم يعوض احساسنا الطبيعي بوجودنا في الوطن : « يبدو أن نابلس اصبحت بعيدة ، صارت بالنسبة الى حلما ، مجرد حلم : أعيشها في نومي ، يتهمونني هنا « بالشوفينية » لشدة تعلقي بالأم الكبرى ، حبيبتي نابلس » – رسالة من روسيا بتاريخ ١٩٧٥/١١/٢٩ – .

وكنا نتوق معها الى عودتها الينا ، فما كان احد سواها ليملأ مكانها ، العودة كانت محفوفة بالمخاطر .. فالشر الصهيوني متربص بها ولا مفر من البقاء في المنفى البعيد .

استحضر ذكراها ...

في شريط حياتها القصير احتشدت همومها الفردية جنبا الى جنب مع همومها الوطنية والاجتماعية .

ظلت في صراع مع المرض والفقر والطموحات البعيدة ، وفي سنواتها الاخيرة ازداد ذلك الصراع حدة مع التشرد والبعد عن ارض الوطن ..

لم يقو جسمها الضعيف على مقاومة برودة الطقس في روسيا ، حيث كانت تعمل على اتمام دراستها العليا هناك . انتقلت الى القاهرة لتقضي بعد ذلك شهرين في صراع مع الموت ، ولكنها كانت اقوى من الموت بتشبثها العجيب بالحياة . وقامت من الموت لتواصل العمل في ابحاثها الاكاديمية وفي الدراسة . وسرعان ما خارت قواها فجأة .. كانت مرهقة صحيا ونفسيا الى الحد الذي أقعدها عن تقديم الامتحان .

كابدت كل هذا واكثر منه ، لكن الحياة تظل كريمة ... ها هي تلتقي في وعورة الدرب وظلمته بـ « زين العابدين فؤاد » ، الشاعر المصري ، والانسان الذي اضاء قنديل الفرح في قلبها . التقيا في بيت الشيخ امام . وبيت الشيخ ملتقى كل الشرفاء الذين يدفعون الثمن الباهظ من اجل البحث عن الحرية ، والسؤال عن المصير ، والعمل على خلق

عالم افضل وحياة أكرم للانسان المسحوق في مصر وفي البلاد العربية وفي كل مكان .

كان الشيخ امام يغني قصائد زين العابدين : وزين العابدين الشاعر مثله كمثل الشاعر احمد فؤاد نجم ، يعيش الشعر قضية فكرية يدفع من اجلها الثمن في عهد اسود ، حكمه الطغيان والفساد والافلاس الاخلاقي .

تخطى المحبان كل الحواجز القائمة ، تخطيا الفقر والمرض والقلق، فقد كان زين العابدين وجها مألوفا في سجون السادات .. « لم نجد بيتاً حتى الآن ، وراتب زين ضئيل جدا . بدأت ابحث عن عمل ، لابد لي من ذلك ، وهناك الخوف ... الخوف من عودة زوجي الحبيب الى السجن ، فهذا متوقع في اي يوم ، وخوفي هو ان أبقى وحيدة وبلا بيت يؤويني » .

عاشا معا لحظات فرح مسروقة ، ولكن يبدو ان الفرح يرفض باسمة :—

« عمتو باسمة » التي احبت الاطفال ، وصادقتهم وجعلت الكتابة من اجلهم هاجسها الوحيد ، يحكم الطبيب بضرورة اجهاضها ، فالقلب العليل ، بصمامه الاصطناعي اضعف من ان يقوم بالعبء .. « .. أفقت اليوم مضطربة .. تذكرت عملية الاجهاض ، او ربما طافت العملية باحلامي استيقظت وعلى خدي تسيل دمعتان » .

وظلت باسمة تنزف الما وحزنا .

ها هو زين يرسف من جديد في قيود الاعتقال مع رفاق النضال في انتفاضة يناير ... انتفاضة فقراء مصر . وظل القلب الصغير الكبير يجاهد ويكابد فيما هو يستمد ضرباته من الصمام الاصطناعي ليستمر في عملية الحياة ، ولكن الى متى ؟ .

* * *

قال الصديق الشاعر على الخليلي : اوراق باسمة سوف تصدر عن « منشورات صلاح الدين » .

وتخالجني مشاعر هي مزيج من الفرح والحزن .

ها هي امنيتها التي ظلت تتمناها تتحقق اليوم . ولكن باسمة بعيدة.. وراء الحياة .

استحضر ذكراها ...

« .. خبر مفرح . اخذت مؤسسة روز اليوسف مجموعتي ، يحتمل اخراجها في كتاب بعد شهر ، والاحتمال كبير . الاوراق الآن عند غالب هلسا لدراستها وكتابة مقدمة تحليلية لها » – رسالة من القاهرة ١٩٧٦/٢/٩م .

« .. انتهى الكتاب الى الضياع بين مؤسسة روز اليوسف والكاتب غالب هلسا الذي خرج من القاهرة نهائياً . هناك نسخة ثانية

من الكتاب لدى مؤسسة منشورات صلاح الدين . اذا كانت لديهم امكانية لنشره فإنني « متنازلة » عن حقوقي المادية ... لا اريد منهم فلساً واحداً ، رغم ظروفي وظروف زوجي الاقتصادية المتدنية ، شأن كل الناس العاديين بمصر .

القاهرة ٨/١١/١٩٧٦

في اليوم الاول من نيسان عام ١٩٧٩ اختطف الموت الموهبة التي كانت تنمو باستمرار ، والبرعم الذي كان يتفتح تحت لمسات الفجر ...

وعادت باسمة الى حبيبتها نابلس ، جسداً هامد الحركة .

اما نحن ، احبابها واصدقاؤها ، فلم يقو الموت على اختطافها من ذاكرتنا بحركتها الدائبة وحيويتها الباهرة .

صعب ان نتصور باسمة راقدة بلا حركة ، بعيدة عن العالم الرحب الذي احبته ، وبقلب سكنت دقاته وانطفأت شعلة الحياة فيه .

من الوفاء الحي ، والمحبة التي لا تموت ، سلام عليك ايتها الراحلة الباقية ، ما كان أقصر رحلتك بين الميلاد والموت ! .

(٢٧)

لقاء

بقلم يغئال سرينة

« داليا ربيكوفتش » ربة بيت مهملة . شاعرة معروفة . الذي اعرفه عنها قليل . كنت تلميذا ، وقد رسخت في ذهني بقايا اشعار لها . صورة قديمة تحدثك عن طفولة جميلة .

انها قصة مصور يوم كان يمّر قبل ثلاثين عاما ، بمقهى « كسيت » كي يطيل النظر الى محياها الجميل الناصع البياض .

اتصلت مرتين حتى حظيت بمكالمتها . ففي الاولى قالت لي المربية ان داليا ذهبت الى « صندوق المرضى » . وفي الثانية قالت لي والدتها يمكنك الاتصال بها ليلاً لان من دأب داليا ان تقرأ وتكتب حتى ساعات متاخرة من الليل .

وشاعرة فلسطينية من آل طوقان . قالوا لي بأدب ان فدوى سافرت الى عمان لبضعة ايام . بعدها عادت . وعند الجسر وقفت ساعات في حر الظهيرة . فحصت وفتشت بدقة ، بعدها عادت الى بيتها .

انفعلت فدوى من المكالمة الهاتفية الفجائية ، بان ترى داليا ثانية ، صديقة حميمة لم تقابلها خلال اثني عشر عاما . ما عدا تبادل الرسائل .

وحين خرجت داليا من الغرفة الثانية كانت قد تغيرت الشاعرة ، الان هي ابنة ٤٩ عاما ذات شعر كستنائي . بسروال واسع ، ونظارات شمسية كبيرة ، ومحفظة يد وزجاجة « ليكير » خضراء هدية لفدوى تذكرت داليا مقابلتها الأولى لفدوى وكيف تعرفت ابنة رمات غان على ابنة نابلس.بعد سنة ٦٧ تحدثوا عن فدوى العطشى للدم . شعرت داليا بأخوة ووشائج الشاعرات بان في الامر التباساً .

يومها شعرت شعوراً سيئا مرده السدّ الرسولي الذي تحطّم وانهار في حرب الايام الستة والروح الشريرة وراجمو الغيب امثال « ألداد وميداد » كتبت في شهر تموز عام ١٩٦٧ : يتباهى السياسيون بقداسة «شيلو » وعنتوت والحاخام « غورن » يطير محلقاً في اجواء البلاد لتدشين « الحرم القدسي » وهذه الايام بالذات وان بدت تشبه ايام المسيح

المنتظر بل اكثر ولكن ، باتت تظهر فيها علامات تشير لعهود القرون الوسطى .

ارشدوها في الحاكمية العسكرية كيف الوصول الي دار «فدوى».

جلست فدوى مستمعة بأدب جم الى كلام « داليا » المتدفق ، مضى بعض الوقت ، لم تعد داليا الى رمات غان وبقيت لتنام ، لقد دعتها فدوى لتقابل اترابها ، مجموعة فلسطينيات ارستوفراطيات . نساء لم يتزوجن هرباً من التقاليد ، وحين تحدثن عن السياسة اوقدن جذوة ، والّمت بهن قشعريرة نجدها احيانا عند نساء ذوات انتاج ادبي ، وحيدات ، امومتهن موهوبة للوطن وليس للولد . نساء نار وكبريت » .

تقول داليا : نساء يتأرجحن بين قمع المجتمع العربي التقليدي وبين قمع الاحتلال . جلستا وتحدثتا طوال الامسية ، بعد ذلك نامت داليا في سرير فدوى بغرفة النوم الصغيرة ، ونامت فدوى على الكنبة في الصالون .

وجاءت فدوى لتزور داليا في رمات غان برفقة اثنين من ابناء العمومة ، كانهما حارسان ، وذلك للتغلب على غرابة بلاد المحتلين . مضى على لقائهما الاول اثنا عشر عاما . احيانا كانتا تتكاتبان ، واحيانا

كانتا تتلاقيان في ما نشر في زاوية الادب الانكليزي الخاصة بشعر المرأة .

كلتاهما تستمدان العزم والقوة من طفولة تعيسة ينقصها الحنان . وان أشعار هذه ماسي الثانية .

وعلى سبيل المثال لا الحصر . كتبت داليا عام ١٩٦٤ عن «انطوان سنت اكزوسبري » وكيف سقطت طائرته في البحر الابيض المتوسط قبل ٢١ عاما .

يومها لم تعلم شيئا عن « نمر » شقيق فدوى المحبوب . ففي احد الايام العاصفة استقل طائرة خاصة مع صديقه اميل بستاني وسقطت الطائرة قرب بيروت .

بصعوبة تسلقت السيارة جبل « البركة » والشمس تنير آفاقاً مغبرة. وصلنا دار فدوى التي تجاور دار بسّام الشكعة الجديدة .

انفعلت داليا وامسكت بزجاجة « اللكير » . كانت بوابة الحديقة مفتوحة ، وفرحة فدوى تظهر بادية للعيان عبر زجاج المدخل . هذه القت بنفسها بين احضان تلك وتبادلتا القبلات الحارة .

اين « عيدو » سألت فدوى . شاعرة ابنة ٥٨ لم تتزوج ولم تنجب ولداً . كل المزهريات في الغرفة مملوءة بالورود . هدوء شامل . «هكذا وددت ان اعيش » تقول داليا . الهدوء والريح في الخارج ومصباح وحيد معلق يلقي نورا وردياً لطيفا . اختفتا في المطبخ : كيف

حال الولد ؟ مثل ابيه ، يشبهه تماما . وانت لم تتغيري اطلاقاً ، نفس الجمال.

تكلمتا بانكليزية عاطفية كانهما زوج حمام .

تخرج فدوى إلى الحديقة لتأتي للشاي بنبات طويل الاوراق له شذى كشذى بيارة ليمون في ليلة صيف .

ومن زاوية في الغرفة تطل صورتان لشقيقيها الراحلين . ابراهيم الشاعر . مات في عز الشباب ونمر استاذ في علم الباثولوجي في الجامعة الاميركية ببيروت لقي حتفه قرب بيروت . احمد وزير خارجية الاردن انتقل الى جوار ربه في عام ١٩٨٠ . رحمي الذي اصيبت ابنته ذات يوم بعيار ناري من قبل بعض الجنود وانقذت باعجوبة هو الذي بقي منهم على قيد الحياة . ومن الاخوات بقي ثلاث . ذرية طوقان منتشرة في ارجاء المعمورة . جرّاح بكليفورنيا ، سفير للاردن في الكويت . مليونير بأبوظبي ، فاروق بشلسي في لندن . ففي كل مكان تجد شتات فلسطينيّ يجاور شتات يهوديّ .

دار فدوى على الرابية بلا هاتف وبلا جهاز تلفاز فهي ليست معنية بهما ، بعد غياب عامين في مدينة اكسفورد للدراسة عادت الى نابلس . هنا جذورها . شاعرة محبوبة في العالم العربي .

احيانا تقضي الشتاء في مصر ، وفي الصيف تسافر الى لندن وتستأجر شقة صغيرة .

في « تشلسي » تعيش وحدها ، تقرأ ، تكتب ، تدلّل نفسها في غرفة استحمام ساخنة تسافر الى اكسفورد لزيارة اصدقاء قدامى . تتحدث في اذاعة ب . ب سي عن موضوعات شتى .

قال لها صديقها سميح القاسم . اجلسي واتمّي يومياتك .

تقول : ليست يومياتي وانما قصة المجتمع الذي عشته والتغيرات التي طرأت عليه وعليّ .

علاقتها مع العالم العربي وثيقة . كتب اليها الشاعر القاهريّ عبده بدوي :

(يا صاحبة العيون الرقيقة ، اختاه ، قولي كلاماً يبكينا ، وذلك في نهاية اليوم الملتهب في هذه الايام المثقوبة وبساتيننا تغص بالموتى) .

احيانا تسافر الى الاردن ، عبر الجسر الذي يربطها بعائلتها في عمان وبحفيدة اختها « طروب » .

الجسر واسطة تعذيب . الطابور الطويل ، والانتظار المر ، والتذكير بالواقع والاهانة . وخلع الملابس ، وفظاظة الجندي والقيظ ، وقصيدتها « آهات امام شباك التصاريح » . التي نشرت بعد حرب الايام الستة وعلى اثرها الصقت بها صورة كأنها « آكلة اكباد » .

وقفتي بالجسر استجدي العبور

بعد نشر هذه القصيدة طلب الحاكم جبعولي من فدوى ان تقابل حنة زيمير وفي تل ابيب سألتها زيمير كيف حال شهيتك اليوم « لكبد صهيوني » ابتسمت فدوى ، واقتبست من شعر بيالك شعرا يشابه شعرها « احلتمونا وحوشاً كاسرة . نشرب دماءكم ولن نرحم » ايجوز لبيالك ولا يجوز لي ؟

وعن هذه المقابلة كتبت حنة زيمير مقالاً شيقا في صحيفة « دافار » وزوّد جبعولي فدوى بنص الترجمة الانكليزية للمقال .

وردا على سؤال داليا قالت : احيانا اشعر بعدم الراحة اذا كنت مع الاخرين اما الان فمعك اشعر براحة نفسية .

تكلمت فدوى عن التقلبات التي حدثت تقول كل ما يحيط بي شائك معقد .

على السطح تطفو قوى كثيرة تتصارع فيما بينها . واذ كانت تعبر عن محنة نفسية فهي تعبّر عن محنة قومية .

واظن انها من باب الحذر لم تطلق عليها تعريفا سياسيا . من طبيعة الاحتلال تدمير المحتل ، وايضا تدهور الذي ابتلى بالاحتلال يبعث اليأس في النفوس « انعدام القوة يحطم مثل القوة نفسها » .

بعد عام ٦٧ لاحت في الافق بارقة امل . ظننّا بان كل شيء ينتهي

سريعاً ، اما الان فمن السذاجة ان يخالجنا الامل . لقد مرت بلادنا بالاحتلال التركي والانكليزي ولكن هذه المرة يختلف الوضع تماماً . انهم يريدون اجتثاث جذورنا من هنا .

تقول داليا معزية : على مدار الزمن لاسيما والوقت يتحرك ويتذبذب بين الامل واليأس يتحسن الوضع . شاهدي فلم « معركة الجزائر » وتشجعي .

في عام ٦٨ طلب منها ديان ان تقابل جمال عبد الناصر وتحدثه عن السلام قائلا : باستطاعة الفلسطينيين ان يؤثروا عليه . قولي له بأن ارائي حول الاراضي تشابه آراء بن غوربون ، اي ليس اسرائيل الكبرى وانما امناً فقط .

ويوم وصلت الى القاهرة اتصلت بها السيدة جهان السادات ، دعتها لشرب الشاي جلس انور بينهما ، تحدثت فدوى عن الضفة وعن ديان وعن سير الحياة . بعدها سألاها ان كانت معنية بمقابلة الرئيس عبد الناصر ، وبعد يومين جلست معه في بيته . ساعتان كاملتان ، الشاعرة النابلسية وزعيم العالم العربي المبجل . ناصر المهزوم ، لم يفكر يومها بالسلام وانما باسترداد الكرامة قبل كل تفاوض . قال لها انه لن يوقع على اتفاقية سلام وان كانت تعيد اليه سيناء ويترك مصير الضفة بيد اسرائيل .

حديث بالغ التأثر . وليس بحديث امور سياسية فقط . وحين عادت من مصر اتصل بها « فارحي » قائلا ان ديان ينتظر . وفي فندق الملك داود في القدس قابلت فدوى ديان ومعه رجلان آخران عرفت منهما « فارحي » ولم تعرف الثاني ، قال لها ديان لاتحدثيني عن كل ما دار بينكما من حديث ، وانما حدثيني عمّا ترغبين في البوح به .

والان وبعد مضي ١٧ عاما حيث انتقل الى جوار ربه كل من ديان وجمال وفارحي تسمح لنفسها وتقول « خدعت » ديان . حدثته يومها بان المقابلة لم تتجاوز العشرين دقيقة وليس ساعتين . لانها لم تكن معنية بكشف النقاب عن الامور ما عدا عدم استعداد ناصر لقبول السلام.

في خطابه في قصر الثقافة . قرأ دايان بعض اشعارها واقترح اقامة امسية شعرية لها في نفسي المكان . كانت السنين الاولى بعد الحرب حبلى بالحوادث . وكتبت الصحافة الاسرائيلية عن كل حركات فدوى وسكناتها ، وكانت وكالة « عتيم » تنشر في كل مرة خبر عبورها الجسر. نشرت قصائدها في الصفحة الادبية في جريدة هارتس ونشرت عن وساطاتها لأجل السجناء ، وضد نسف البيوت « احد بيوت اقربائها نسف » او قفوها فترة عند الجسر واجروا تفتيشاً في دارها .

بعد وفاة جمال عبد الناصر كتبت قصيدة رثاء ويأس من العالم العربي الذي لا حول له ولا قوة .

تقول داليا ليس بمقدوري مصارعة الوضع الذي انتهت اليه فدوى، الاحتلال واستهتار المستوطنين وعبثهم . والكراهية واطلاق الرصاص ، فقدان الثقة والايمان بالسلام ، والبغضاء التي حلت مكان التسامح والمحبة . كل هذه لم تترك آفاقاً ومتنفساً لشاعرتين شقيقتين .

وفجأة تسأل فدوى عن نتائج الانتخابات للهستدروت كانها علامة تمس شغاف القلب ، بأن هناك بقية امل كأنه جمر غير ملتهب هبت عليه ريح لتبعث به اشتعالاً بسيطا . ماذا تعتقدون عن فوز «قيسار»؟ كأن نسبة ٤٪ يأتي بعدها الفرج . وبعدها تعود الى الكآبة «هذا عصر الكآبة » تقول فدوى ، كل واحد منا يحسّ في قرارة نفسه وفي وعيه الباطني بانه مطارد من قبل شخص مجهول « فترة غير سعيدة» . يوم كنا في ايام الصبا غنينا في الحمّام ، ونحن نصعد ونهبط السلالم ، على التلال والآن يخيم علينا الصمت ، لا رغبة لدينا في الغناء. كلنا مطاردون .

وتجلب « لعيدو » هدية شيئا كروياً ملفوفاً بورق مزركش .

وفي الحديقة تخرج كرمة العنب القديمة نبتة معترشة كي تساعد على التسلّق بسنادها .

وتمرق قطة ، الضوء بتغير طوال الوقت وكذلك البرودة ، وبعد حديث طال أمده كأنه قماش رقيق الحواشي نسج في غرفة ، ومواده

رحيق السوسن والشاي ، طعم الثمر ، اشعة الشمس ، حب الشاعرتين والحزن يغشى الجميع .

فدوى وداليا تدخنان ، يد فدوى المعتنى بها إهابها باهت واملس ، وفي معصمها سوار فضة كبير ، ممسكة بالسيجارة بوضع لطيف . اما يد داليا فلا تحظى بالعناية وقد علاها النمش وان كانت اصغر سناً من فدوى لكن كبر السن ترك آثاره عليها اكثر .

السيجارة التي في يدها ملتهبة « تخدم » حاجة ما داخلية ، فقدان الهدوء ، كلتاهما تبثان بعنف رسالة نفسية .

فدوى تترك لديك انطباعاً كما « غدولة كوهين » ولكن اكثر رقة وأقل هستيرية ، هناك تقارب دائم للدموع واحيانا قوة جبارة لدى نساء شاعرات رقيقات الحس ليس لهن اولاد .

وتطرقت داليا الى موضوع الاولاد في الحرب ، هذا الموضوع الذي لا يعطيها راحة وكتبت حوله بضع قصائد اثناء الشغب والفوضى في الضفة وحرب لبنان . كأنما « تحلّق في ارتفاع منخفض » . هناك شاهدت بام عينها موت راعية صغيرة وحيدة ، راعية عربية . تمنت اثناء الشغب لو تتخذ (حركة السلام الان) قراراً بتبني اولاد من الضفة ولو الى حين لحمايتهم من الرصاص وابعادهم عن المظاهرات لكن امنيتها لم تتحقق .

« من الضرورة القصوى توفير الامن والحماية للاولاد حتى في زمن النضال القومي او اثناء الحرب » تقول داليا لفدوى انه لا ينبغي للاولاد الصغار الاشتراك في مظاهرات . وغني عن البيان ان هؤلاء الاولاد لا يمكنهم ان يفعلوا الكثير ، ومن الواجب صيانتهم ، ثم تضيف: « في زمن الانتداب كان النضال منظماً ، الرجال هم الذين حاربوا وليس الاولاد . لن اسمح لولدي ان يحارب اولادا ، فتقول فدوى : لا مناص من أن يأخذوا حصتهم في الوضع القائم ، هم المستمرون بعدنا ، الاحتلال مرفوض لدى الجميع وكذلك لدى الاولاد. لم اسمع يوما ان اماً تذمرت او شكت من ابنها المشارك في المظاهرات ، العكس هو الصحيح . اولياء امورهم فخورون بنشاط اولادهم ، لم تعرفي ابدا ما معنى الاحتلال . كل الامور تشير بان هناك غاية مبيتة لاقتلاعنا مع اولادنا من الوطن . ولهذا يتطلب من الجميع ان يتجندوا ضد الاحتلال.

كلتاهما هادئتان ، ولكن كانما كلتاهما قد تخندقتا في الكنبة الناعمة التي تحوّل تنجيدها الازرق الى اكياس رمل في المعركة على الاولاد.

داليا تغطي وفدوى تكشف . وقصيدة فدوى «خلف القضبان» التي نشرت في المجموعة الادبية الانكليزية بجانب قصيدة داليا تحدث عن فتاة نابلسية عمرها ١٤ عاما من عائلة النابلسي . تقول فدوى

القصيدة على لسان الفتاة الصغيرة : « قبل السجن دوّنت حروفا في كراستي / رسمت بالدم سوسناً كبيراً / وأمي التي انثنت عليّ ورأت مارسمت باركت هذا الرسم » .

اختلفنا في الرأي ، كأن هاوية تفصل بينهما ، وفعلاً الهاوية قائمة مادام هناك محتل واحتلال حتى وان كان الاخر يبغض الاحتلال .

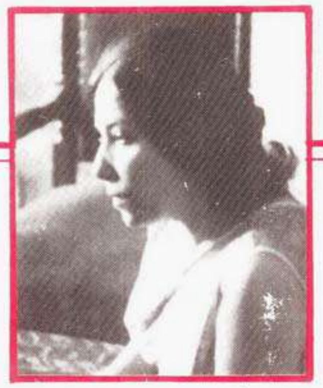
ويحل الهدوء ، ويترك النقاش ، والظلام الذي خيم يجبرنا على المضيّ نحو السيارة .

ترافق فدوى داليا ، تتبادلان القبل بحرارة كما حصل في اول المقابلة ، ويساور داليا بعض الشك ، ربما أهمل موضوع ما .

تلوّح فدوى بيدها باتجاه السيارة . ومن ثم تقفل راجعة الى البيت وتختفي . ويهبط الظلام على المدينة وعلى الطريق ، تتحدث داليا قليلاً عن الحياة وعن الابن الذي ينتظرها ، ربما ستنشر بعد عام ديوان شعر جديد بعد سكوت طويل .

* * *





الشاعرة سنة ١٩٦٨

الرحلة الأصعب

لوحة الغلاف: بيسير شرف

لن تبرح مخيلتي صورة ذلك اليوم الحزيراني المشؤوم ، يوم الاثنين الخامس من حزيران العام ١٩٦٧ . كنت في عصر اليوم السابق قد مضيت الى القدس استجابة للنداء التلفوني من « الصديق الغريب » هناك ، حيث اقترح علي المغادرة الى عمان أو بيروت فالحرب وشيكة الوقوع وهذا شيء مؤكد . ولكنني أعلنت رفضي القاطع لفكرة الهرب، فنصحني بالتزود ببعض الخبز والأطعمة المعلبة والبن والسجائر الخ ....



الناشر : دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن

التوزيع : المركز العربي لتوزيع المطبوعات
بيروت ـ لبنان